ثلاث نساء من مصر

الطبعة الثانية

تحية حليم . بنت الشاطئ . أمينة السعيد

رجاء النقاش



ثلاث نساء
من مصر

رجـــاء النقَّـــاش



العنوان:

ثـلاث نسـاء مـن مصـر

تأليف:

رجـاء النقّـاش

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 977-14-4090-X
رقم الإيداع: 2007/19038
الطبعة الثانية: يوليو 2010



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

نساء مميزات وناقد عبقري

هذه سيرة شخصية فنية وفكرية وإنسانية لثلاث نساء مصريات مرموقات لعبن أدوارًا مميزة في الحياة الثقافية العربية. وقدمن نماذج ـ كل في مجالها ـ للإسهام الخلاق الذي لا ينسى في حياة الأمة وتطورها، وارتبطت سيرهن بالعصر الحديث الذي عشن فيه فشكلن بعض علاماته الفارقة لا كنساء مميزات فحسب وإنما أيضًا كمبدعات يندرجن ضمن جمع كبير من رموز العصر وصانعي أفكاره الأساسية من الرجال والنساء.

لم يكن اختيار الناقد الراحل «رجاء النقاش» لهذه النسوة الثلاث عشوائيًا أو جاء من قبيل المصادفة بل هو نتاج مخطط فكري مدروس وعميق شاء صانعه أن يحيط بالعالم الشاسع لنساء توجن مسيرة جنسهن الطويلة من أجل التحرر والانعتاق ووصلن إلى القمة في زمن لم يكن التعليم فيه متاحًا ومجانيًا للجميع كما حدث بعد ذلك، ومع ذلك شاءت كل واحدة منهن بجد واجتهاد بالغين أن تكون لها بصمتها الخاصة لا في هذه المسيرة النسائية وحدها وإنما في حياة الوطن والأمة أيضًا، فأصبحن رموزًا تتجاوز عالم النساء المغلق غالبًا من «تحية حليم» الفنانة التشكيلية العبقرية التي جاءت من أسرة غنية إلى «أمينة السعيد» الصحفية والكاتبة الموهوبة التي فتحت لها أسرتها الميسورة كل الأبواب، فـ«عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطئ» الشاعرة والمفكرة وعالمة الدين والأستاذة الجامعية المشاغبة التي ملأت الدنيا وشغلت الناس كما قيل عن المتنبي والتي جاءت من أسرة فقيرة ومحافظة تحايلت على كل القيود التي فرضتها عليها إلى أن كسرتها.

ولكل واحدة من الثلاث قصة كفاح في مجالها استحقت أن تروى وأن يضعها ناقدنا أمام الأجيال الجديدة فاتحًا لهذه الأجيال آفاق المعرفة والتعلم والتماس القدوة راسمًا صورة للعمل الشاق في مجاهدة النفس، ومغالبة الصعاب ومراكمة الثقافة واختيار المصير، واستخدام القوة الكبيرة في داخلهن لبناء قيم الدفاع عنها وتجسيدها

في سلوكهن وعلاقاتهن وبث الرسائل التنويرية إلى المجتمع الذي نقلته ثورة يوليو 1952 نقلة جديدة في اتجاه التحرر والتقدم والمساواة وإن عطلت بعض إمكانياته.

ولما كانت النساء الثلاث قد ولدن وتشكلت ملامح عوالمهن الأولى قبل ثورة يوليو وجرى استكمالها في ظل معارك الثورة وصراعاتها وقيودها فقد أصبحن شاهدات على عالمين ومشاركات فاعلات في التحولات الناشئة عن تناقضهما، فخلقت «تحية حليم» واقعيتها الأسطورية كفنانة تشكيلية لم تنجب أطفالاً ولكنها اختارت أن تحب القطط وتربي في بيتها عددًا كبيرًا منها إذ وجدت فيها دفئًا وحنانًا لم تجده بين الناس لتصبح القطط هي أسرتها خاصة بعد فشل تجربة زواجها من الفنان «حامد عبد الله» الذي طعنها في الصميم حين فوجئت بأنه تزوج من أخرى كما يحكي لنا «رجاء» حيث تفرغت تمامًا لفنها وأبدعت لوحاتها المتنوعة وخلقت مثلها العليا واستدعت في بعض منها عوالم أصولها النوبية، وعرضت لوحاتها في كثير من البلدان لتحصد اعترافًا ومجدًا يحكي لنا «رجاء» عنه بمحبة ناحتًا وصفًا فنيًا مزيدًا حين شاء أن يكشف عالمها فقال «ببلاغتها الساذجة» التي وصلت إليها بعد أن نفضت عن روحها ثوب «الأرستقراطية المادية» لنعرف نحن القراء أن ثمة أرستقراطية أخرى روحية ونفسية وإنسانية تتعالى على الصغائر وأشار من باب خفي إلى نقاد الفن التشكيلي ليدرسوا إبداع هذه الفنانة الكبيرة مجددًا في ضوء هذين المصطلحين الجديدين اللذين بلورهما الناقد الكبير في القول إن لوحاتها لم تكن واقعية ومع ذلك جاءت شديدة التعبير عن الواقع عبر «سحر الفن» فحققت ما سماه بالنجاح النظيف دون التواء أو مؤامرات.

انشغل «رجاء» أيما انشغال بالوضع الإنساني لـ«تحية حليم» كامرأة وحيدة رغم أنها عرفت كيف تملأ وقتها وتتجنب السقوط في الضجر، حين وجهت كل طاقتها لإبداعها وقططها، ولما كان قد أخذ يكتب سلسلة مقالاته عنها قبل أن يتوفاها الله فقد نشر رقم تليفونها في نهاية واحدة من هذه المقالات حاثًا قراءه على السؤال عن الفنانة التي خاف عليها من الوحدة خاصة وأنها تميزت بقوة الروح وعفاف النفس، ونبغت في تمجيد الإنسان «لأنه عندي هو كل شيء، وهو صانع كل الأعمال الكبيرة في العالم، وهو الذي يضفي البهجة على الوجود بأكمله».

أما المرأة الثانية التي وصفها بسيدتي وأستاذتي فقد زاملها في «دار الهلال» فهي الكاتبة الصحفية «أمينة السعيد» المرأة لكل العصور كما يقول عنها والتي عجلت مواهبها بيئة متحضرة وأب ميسور ومستنير وأم متعلمة فلعبت التنس في الجامعة، ولبست ملابسه في ثلاثينيات القرن العشرين فتميزت بالقمة الجسدية والشجاعة العقلية والروحية معًا واختارت مهنة الصحافة فاعتبرتها المؤسسة الحقيقية للصحافة النسائية الشعبية، هي التي أسست مجلة «حواء» في أواسط الخمسينيات من القرن الماضي وكانت نقيضًا لمجلة «بنت النيل» لـ«درية شفيق» التي كانت مجلة أرستقراطية ناعمة تصدر في مصر وكأنها تصدر في باريس، وتميزت «أمينة السعيد» بالنظام والدقة وكأنها نسخة نسائية من «فكري أباظة» في هذا الصدد وآمنت أن العقل هو سيد الإنسان وسيد الحياة.

يتوقف الكاتب أمام روايتها الوحيدة «الجامحة» ليقدم درسًا بليغًا في النقد الأدبي كاشفًا عن عمق منهجه هو وتفرده لافتًا إلى أن بعض الذين ينتجون إنتاجًا أقل بكثير قد يؤثرون على الدنيا والناس، ويصبحون من علامات الطريق في الفن والحياة والفرق: هو وجود الشخصية الأدبية وقوتها عند البعض، وانعدام هذه الشخصية عند الآخرين و«أمينة السعيد» هي صاحبة شخصية قوية وأسرة قادرة على الحكي حتى أنه سماها «شهر زاد السعيد» وهو يحدد لنا عناصر القوة في شخصيتها والبيئة التي كونتها لتجعل منها مجددة وإيجابية، وأقول باطمئنان أدبي كامل إن أسلوب «أمينة السعيد» هو من أصح وأجمل وأقوى الأساليب العربية المعاصرة بين النساء والرجال على السواء، كما أنها «لم تتهور أبدًا» ولعل ذلك هو سبب نجاتها من العواصف الكثيرة التي تعرضت لها مصر في هذا العصر، ودفع فيها الكثيرون من أصحاب الفكر والرأي ثمنًا غاليًا والشجاعة هي الوسط الذهبي بين رذيلتين هما الجبن والتهور كما يرى «رجاء».

«تحية حليم» و«أمينة السعيد» كانتا محظوظتين بالأسرة الغنية والراحة المادية النسبية لكن حكاية الدكتورة «عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطئ» تختلف جذريًا إذ كان عليها أن تكافح على جبهتين كفاحًا عنيفًا جبهة التقاليد القديمة، وجبهة العسر المادي وحصلت على التوجيهية «الثانوية العامة» منازل فتمتعت بما سماه النقاد «غريزة الفضول للفهم والمعرفة» لعلها ورثتها عن جدها الأمي الذي عرف الحياة وتأمل فيها ببصيرة نافذة وكان يملي أفكاره على حفيدته لتنشرها الصحف.

علمتها تجربتها القاصية الدأب والمثابرة سواء في الدراسة أو البحث المتواصل والكتابة الغزيرة حتى آخر لحظة من عمرها بعد أن تخصصت في الإسلاميات وخاضت معارك كبرى دفاعًا عن رؤاها ومنهجها وعن حقوق المرأة وإنسانيتها، وصورت في بساطة وصدق وإحساس عميق ما كانت تتعرض له المرأة العربية التي تخرج إلى الحياة العامة وخاصة في النصف الأول من القرن العشرين من متاعب وصدمات تصل أحيانًا إلى حد المأساة كما حدث لكل من «مي» و«باحثة البادية».

كتبت القصيدة العمودية وقصيدة النثر وأحبت أستاذها «أمين الخولي» وتزوجته وعبرت أدبيًا عن الحب الكبير بينهما ولكنها طمرت مواهبها كشاعرة وقاصة بعد أن أنتجت في المجالين إنتاجًا جديرًا بالقراءة وانحازت للدراسات الدينية «فهناك ظلم حاق بنا نحن النساء، فغاب من تاريخ الفنون حديث عواطفنا ومشاعرنا..» كما تقول هي.

ويقول الكاتب: «لو أن جهدًا تم بذله في جمع الآثار الأدبية لبنت الشاطئ لتغيرت صورتها إلى الأفضل والأجمل. ففي هذا الإنتاج الأدبي الذي أهملته الكاتبة عمدًا حرصًا على صورتها كعالمة من علماء الدين قيمة إضافية لإنتاجها الضخم.

ويطل «رجاء» على بعض إنتاج بنت الشاطئ الشاعرة ليضيء لنا هذا الجانب المسكوت عنه من حياتها الغنية، كما أنه يحكي لنا عن المحن الشخصية التي قصمت ظهرها بموت زوجها وابنها وابنتها ولكنها أظهرت قوة معنوية وروحية، تكاد تكون خارقة، حمتها من الانهيار تحت ضربات قدر قاس، وواصلت البحث والدراسة والكتابة والتدريس في الجامعات المصرية والعربية حتى قبل موتها بأيام قليلة وهي في الخامسة والثمانين.

وهكذا حكى لنا «رجاء» في مفردات بسيطة حملت أكثر الأفكار عمقًا وتنوعًا لا حول هاته الرائدات الثلاث فحسب وإنما أيضًا حول العصر الذي عشن وأنتجن فيه داعمًا رؤيته بثقافته الواسعة والشاملة ولسان حاله يقول مع «أمينة السعيد» إلى الأمام أيها الأبناء، لا تتخلفوا عن الدنيا التي تسير، بل تقفز بسرعة، ولا تهابوا ولا تهادنوا الذين يريدون أن يرجعوا بكم إلى الوراء.

فريدة النقاش



تحية حليم



عاشقة القطط والإنسان..!

عندما سئلت الفنانة الكبيرة المبدعة «تحية حليم» عن تفسيرها للتناقض الواضح بين شخصيتها الإنسانية التي تفيض بالرقة والوداعة والحنان وبين لوحاتها التي تصل فيها معاني القوة إلى درجة حادة من الوضوح، قالت في صدقها البسيط المعروف عنها: «إن مصدر هذا التناقض أنني عشت حياة قاسية جدًّا.. أنا فعلاً تعبت بعد طلاقي من زوجي الفنان حامد عبد الله، وهناك أمور كثيرة كسرتني.. لكن الحمد لله، وقفت مرة أخرى على أقدامي بسبب الفن، ومن أجل الفن؛ فالفن هو قيمة حياتي، وهذا هو السبب في هذه القوة والحدة في لوحاتي، بينما تكويني الشخصي يدل على منتهى الضعف، وأنا فعلاً ضعيفة تجاه الإنسان.. وأيضًا الحيوان.

وفي هذه الكلمات التي تقولها «تحية حليم» عن حياتها صدق كامل وأمانة في التعبير، وهي لا تصور شخصيتها فقط، وإنما تصور نوعًا خاصًّا من الفنانين، بل هو نوع خاص من بني الإنسان، وهم هؤلاء الذين يملكون قوة كبيرة في داخل نفوسهم، ولكنهم يمنحون هذه القوة بأكملها لهدف واحد كبير يخلصون له كل الإخلاص، فلا يبقى لهم في مواجهة صعوبات الحياة وتجاربها القاسية ما يستطيعون به حماية أنفسهم من الضربات التي يتلقونها باستمرار، ودائمًا يذكرني هذا النوع الرفيع من البشر بعبارة جميلة ودقيقة قالها يومًا الموسيقار النمساوي الكبير موزار (1756 ـ 1791) في هذه العبارة المؤثرة يقول الفنان الكبير: «الفن سهل، ولكن العسير هو الحياة». والذين يمنحون جهدهم كله للفن، أو لأي عمل واحد كبير، ويخلصون في ذلك كل

الإخلاص، كثيرًا ما يفقدون القدرة على التعامل الناجح مع الناس والحياة، وكثيرًا ما يتعرضون للأحزان والهموم؛ لأنهم لم يفكروا في استخدام تلك القوة الكبيرة التي في داخلهم لخداع الناس والتحايل على أمور الحياة المختلفة.

فكل ما لديهم من قوة متجه إلى هدف واحد نبيل.. وبمرور الزمن يتحول هذا الهدف إلى شيء سهل ويسير، من شدة التركيز عليه والحرص على إتقانه والوصول به إلى درجة تقترب من الكمال. وبعد ذلك يلتفت هؤلاء إلى أمور الحياة والناس فلا يعرفون كيف يواجهون المعركة الأخرى الكبيرة، وهي معركة التعامل بنجاح مع الآخرين. فهذه المعركة تحتاج إلى جهد، وقدرة على مواجهة المكر والدهاء بالدهاء، والخيانة بسحق الخائنين وضربهم على رءوسهم حتى لا تقوم لهم بعدها قائمة. فمن أين للمشغول بالفن، أو بأي هدف نبيل وكبير آخر أن يعرف ويجيد معارك الصراع مع الناس والحياة العملية؟.. ذلك صعب جدًا على أصحاب النفوس العالية الكريمة النبيلة من أمثال «موزار» و«تحية حليم» ومن هنا قال موزار كلمته الخالدة: الفن سهل ولكن العسير هو الحياة.

ومنذ عدة أشهر، حصلت على نسخة من كتاب للناقد الفني المبدع الكبير الدكتور صبحي الشاروني نشرته «دار الشروق» في طباعة رائعة، وأشرف على إخراجه الفنان حلمي التوني فأبدع فيه. والكتاب عنوانه «تحية حليم الواقعية الأسطورية»، وهو «تحفة» في كل شيء، فهو تحفة في الجزء المكتوب منه بقلم صبحي الشاروني، وتحفة في المقدمة الشاعرية البديعة التي كتبها له الفنان الكبير حسين بيكار، والكتاب تحفة قبل ذلك وبعد ذلك في اللوحات الرائعة التي تشغل الجزء الأكبر منه وهى لوحات «تحية حليم» وقد وجدت في هذا الكتاب شفاء شخصيًا لنفسي، فقد حصلت عليه وأنا أمر بحالة من حالات الانقباض والضيق، بسبب محنة خاصة من تلك المحن التي تفاجئ الإنسان على غير انتظار، والتى يجيد صناعتها أشرار احترفوا صناعة الشر بأعصاب باردة ونفوس هابطة، وأجادوا استغلال النيات الطيبة ليسيئوا إلى أصحابها ويلحقوا بهم الأذى ويعكروا صفو حياتهم.

وكنت قد نفضت يدي من كل الصراعات التي تتيح للأشرار فرصة العبث والتدمير، وحرصت على ألا يكون في حياتي شيء يصارعني أحد عليه. ولكن الأشرار محتالون، وهم يستطيعون أحيانًا أن يتسللوا من الأبواب الخلفية لتحقيق أهدافهم غير الإنسانية. وفي هذه الحالة النفسية من الحزن والضيق عثرت على كتاب صبحي الشاروني فعكفت على قراءته والتأمل فيه، فأنا أحب مؤلف الكتاب منذ عرفته ـ عن طريق القراءة ـ لأول مرة، وتابعته بعد ذلك كلما أتيحت لي متابعته، فلم أترك له سطرًا وصلت إليه يدي دون قراءته فهو من أرقى وأنضج نقاد الفن الذين عرفتهم ثقافتنا العربية الحديثة، وفي كتابته عن الفن التشكيلي ذوق وعمق وشمول وعلم غزير، وفيها فوق ذلك وأهم من ذلك أسلوب سهل واضح جذاب بسيط، لا يتعالى صاحبه على القارئ بما لديه من ثقافة فنية رفيعة، ولا يغرق السطور بمصطلح واحد دون أن يشرحه ويفسره، ولا يترك حول موضوعه حقيقة واحدة ولو كانت جزئية وبسيطة إلا ويسعى إلى تقديمها خدمة للقارئ واحترامًا للموضوع الذى يعالجه، فصبحي الشاروني ناقد ومؤرخ كبير لم يدرك القادرون ـ على الاستفادة منه ـ قيمته الحقيقية، ولم يستطع هو ـ لترفعه وعفة نفسه ـ أن يفرض وجوده على الذين كانوا يستطيعون أن يقدموا من خلاله للناس كثيرًا من الخير في ثقافتنا الفنية الحديثة. أقبلت على كتاب صبحي الشاروني لحبي الكبير لكاتبه، وأقبلت عليه لموضوعه وهو الفنانة «تحية حليم» فأنا من عشاق فنها الإنساني العظيم، ولو كنت قادرًا على اقتناء كل لوحاتها لفعلت ذلك دون تردد، ووجدت سعادتي وسط هذا العالم السحري النبيل الذى تمثله هذه اللوحات، ورضيت أن أعيش بين الألوان والوجوه التي يمتلئ بها عالم «تحية حليم» ولكن اقتناء كل لوحات «تحية حليم» هو حلم مستحيل، لكثرتها وارتفاع أسعارها في كل أسواق الفن العالمية، ولأن ذلك من ناحية أخرى يمكن أن يصبح جريمة من جرائم الاستيلاء على «الثروة القومية العامة»؛ لأن أعمال تحية حليم يجب أن تكون متحفًا وطنيًا وحديقة مفتوحة للجميع يتنفسون فيها عطر الجمال والذوق والإنسانية وحب الناس والوطنية. أقبلت على كتاب صبحي،

الشاروني إقبال العاشق الملهوف، وقرأته مرات متعددة، فكلما انتهيت منه عدت إليه من جديد، فقد وجدت في هذا الكتاب شفاء لأحزاني وما كنت أشعر به من ضيق؛ لأن حياة «تحية حليم» فيها من الصعوبات والانكسارات ما كان يكفي لهزيمتها وهزيمة مئات آخرين ممن تعاملهم الحياة بقسوة، ويفاجئهم الشر من حيث لا يتوقعون، ولكن تحية حليم انتصرت على ذلك كله ونجت من الطوفان بسفينة صنعتها من جهدها وموهبتها هي سفينة فنها الجميل وأخلاقها العالية. ففي حياة «تحية حليم» تجربة إنسانية فريدة، نتعلم منها أن القلوب النقية والإرادات القوية لابد أن تصل في النهاية إلى الانتصار على كل الشرور والأشرار والمنغصات والأحزان. وأعود إلى الكتاب نفسه لأشير إلى بعض ما جاء فيه، ففي مقدمة الفنان الإنساني الكبير حسين بيكار نقرأ هذه الكلمات تحت عنوان «تحية من القلب إلى صاحبة أكبر قلب»، حيث يكتب بأسلوبه الشاعري الصافي الجميل فيقول:

«.. كان أول من زارني في ذلك الصباح الربيعي الباكر الفنانة القديرة «تحية حليم» أو «توحة» كما أحب أن أدللها دائمًا. لم تكن «توحة» وحدها هذه المرة، وإنما كانت تحتضن بين ذراعيها قطًّا صغيرًا يفوح منه عطر أخاذ، وحول رقبته يلتف شريط حريري وردي اللون ينتهي بعقدة أنيقة أشبه بأكمام وردة تتفتح لشمس الربيع، قالت لي وابتسامتها الطيبة تلون الدنيا بأسرها: أقدم لك «فافي».. وكان هذا هو اسم الزائر الصغير الذى «ينونو» «نونوة» ناعمة تسكر هواة «القطط» وعشاق هذا الرفيق الرقيق المتوج بكبرياء أكبر من حجمه.

كان «فافي» قابعًا بين ذراعي «توحة» وكأنه قبضة من القطن المندوف تناثرت فوقه البقع السوداء، وكأنها التناقض الصارخ بين الليل والنهار، أو شهيق الوجود وزفيره. أضافت الفنانة الكبيرة وابتسامة خجلى تصبغ كلماتها بدفء نبيل: إنني أعرف أنك مثلي مولع بحب القطط ولهذا لم أجد خيرًا من هذا الكائن الوديع أهديه لك بدلاً من باقة من الورد قد لا تعيش معك غير بضعة أيام أو ساعات.

هتف داخلي هاتف صارخ كاد يدير رأسي.. يالهذه الفنانة الأعجوبة التي تتخطى حدود المألوف والعرف، وتأبى إلا أن تتنازل عن أعز مقتنياتها وتقدمه عربونًا لصداقة تدوم وليس شيئًا ماديا مهما غلا ثمنه. إن القطط في دنيا الفنانة «تحية حليم» هي أسرتها التي تملأ فراغ نفسها بالمودة والعرفان.. إنها تعني الحب المتبادل، وليس الغدر والخيانة كما هو مفهوم و «شائع عن القطط» لدى من يجهلون لغة التخاطب مع الغير، أيا كان هذا الغير، إنسانًا أو حيوانًا، أو قطعة من الحجر الأصم.

إن الحب عند «تحية حليم» هو «جوهر» نسيجها الطيب، وشعارها «الوحيد» الذي تتعامل به مع كل من حولها.. وما حولها.. به تحتفي بالحياة، حلوها ومرها، حتى في أسوأ الظروف عندما تحيط بها الأزمات والهموم؛ لأنه ليس لديها سوى الحب الذى يشع من قلبها، وكلامها وتصرفاتها، ويشع بصورة خاصة من لوحاتها عندما تنصهر مع جزئياتها في كيان عضوي واحد. إن هذا الإشعاع السحري الذى يشع من إبداع الفنانة الكبيرة هو الذى يستقبل «المشاهد للوحاتها» بحرارة وجدانية، ويمد خيوطه الشفيفة التي تصبح لغة التخاطب والتعارف والتقارب التي تربطه بالعمل الفني بجميع أبعاده، والحب في مفهوم «توحة» هو العطاء بغير حدود مهما يكن قد صاحب هذا العطاء من معاناة وتضحيات».

ونواصل الرحلة مع حسين بيكار، وهو يرسم لوحة رائعة للفنانة «تحية حليم»، ولكن بالكلمات هذه المرة وليس بالألوان حيث يقول:

«إنني رغمًا عني وبيني وبين نفسي أقول لها «ماما تحية» برغم أنها أصغر مني سنًا.. أشعر أنها تتدفق بالأمومة، وتشعرني بأنني ابن أصغر.. وهي ميزة عجيبة لا تتوافر لأي إنسان، فصفة الأمومة تنبع من حب داخلي، حب يفرز نفسه دون افتعال ويتدفق فيشعر به كل من يحيطون بها، فهو يفرض نفسه على الأصدقاء والأحباء، وتحية حليم عجينة من الوفاء والحب والانتماء وهي صفات الفنان الأصيل بدونها لا يكون الفنان، وهي جمعت تلك الصفات جميعًا. وعندما أتطرق للجانب الإنساني فيها أتذكر حبها للقطط

الذي أشاركها فيه أيضًا، فأنا مغرم بالقطط لكنها أعطت لها حياتها، فهي من الممكن أن تحرم نفسها من الطعام أحيانًا كي توفره لقططها التي تحبها حبًا لا يوصف، وربما نقول إن القطط خائنة، عديمة الوفاء.. وهذا يؤكد أن عطاءها بلا مقابل».

ونترك هذه اللوحة البديعة التي رسمها بيكار ـ بكلماته وليس بريشته ـ للفنانة «تحية حليم» لنتوقف عند بعض ما جاء في الدراسة الرائعة التي قدم بها صبحي الشاروني هذا الكتاب عن الفنانة الكبيرة، وأتوقف بالتحديد عند أصولها الأرستقراطية العالية، والتى نزلت منها باختيارها وإرادتها الكاملة لتكون فنانة تعبر عن شعبها تعبيرًا حقيقيًا لا افتعال فيه، فتحية حليم هي حفيدة امرأة بالغة القوة والشجاعة، وهذه الجدة هي التي يلخص قصتها صبحي الشاروني عندما يقول: «لقد ورثت تحية حليم عنادها للظروف، وقوة شخصيتها «الفنية» من جدتها التي تتناقل الأسرة قصتهما كالأساطير تحكي عن موقف هذه الجدة الصارم عندما رفضت الزواج من وزير مالية «الخديو» صاحب السطوة والسلطان «إسماعيل صديق» المعروف باسم «إسماعيل المفتش» الذي كان يعقوب صنوع المفكر الفنان المعروف باسم «أبو نضارة» يعتبره أقوى شخصية في «القصر» أيام الخديو إسماعيل، وكان يهاجمه باعتباره سبب فساد الحكم وقتها، لكن جدة «تحية حليم» رفضته، لأنها ـ أولاً ـ لم تحبه، وثانيًا للفارق الكبير في السن وثالثا لأنه متزوج. وكانت جدة «تحية حليم» في ذلك الوقت رئيسة لفرقة الموسيقى في قصر عابدين، وكانت عازفة «الكمان» في هذه الفرقة. لقد رفضت الموسيقية الشابة الجميلة، القوقازية الأصل، عرض الزواج من الوزير الخطير، وتمضي الأسطورة في وصف وسائل الترغيب والإرهاب المختلفة التي تعرضت لها هذه «الجدة» فقد «ألقوها في الجب» وهو مكان السجن والتعذيب في ذلك العصر... فأضربت عن تناول الطعام خمسة عشر يومًا حتى هزمت بعنادها وزير الخديو صاحب السمعة الرهيبة، ولا شك أن هذه القصة إن لم تكن قد وقعت بتفاصيلها فإنها منحت الفنانة «تحية حليم» قدوة ومثلاً تحتذي به في الإصرار والعناد. وقد انتصرت بهذا العناد الموروث على تقلبات الزمن».

ويواصل صبحي الشاروني حديثه عن هذه الجدة العنيدة القوية فيقول:

«عندما أحس الخديو إسماعيل الذى حكم مصر في منتصف القرن الماضي أنه على وشك أن يتم عزله عن عرش مصر، قرر إقامة أفراح للعاملين في البلاط بتزويج الفتيات العازفات في فرقة الموسيقى بالقصر من الضباط الشباب في الحرس الخديوي، وتكفل بتأثيث بيوتهم لكي يطمئن على مستقبلهم قبل أن يرحل إلى منفاه، وهكذا تزوجت عازفة الكمان ورئيسة الأوركسترا الآنسة «اليوزباشي جولنار» من الضابط الشركسي «عبد الوهاب حلمي» الذى كانت تحبه، وتم الزواج بأمر الخديو، وقد أنجبا بنتًا، عندما كبرت تزوجت من أحد ضباط الجيش المصري في السودان، وأنجبت له ثلاثة أطفال، وفي مدينة «دنقلة» السودانية ويوم9 سبتمبر عام 1919 رزقا بابنتهما الرابعة المعروفة بيننا الآن باسم الفنانة «تحية حليم» وقد واصل والدها عمله كضابط بالحربية حتى وصل إلى مرتبة الياور الأول للملك فؤاد برتبة «الأميرالاي» التي تعلو على رتبة «البكوية» فعاشت تحية حليم طفولتها وصباها في جو من الرفاهية الأرستقراطية، لولا أنها عشقت فن الرسم فسارت في الطريق الصعب الذى اختارته لنفسها».

هذا ما كتبه الناقد والمؤرخ الفني الكبير صبحي الشاروني عن نشأة تحية حليم، أما بقية قصتها المليئة بالعواصف فسوف أتابعها في الفصول القادمة. ولكن قبل أن أنهي هذا الفصل أحب أن أسجل ملاحظتين: الأولى: هي أن هذا الكتاب الرائع ـ كما فهمت من بعض الإشارات فيه ـ قد تم إصداره على نفقة «تحية حليم» نفسها وأقول الحق: إنني قد خجلت من ذلك، فقد كان هناك من يجب عليهم أن ينفقوا على هذا الكتاب وأن ينشروه على نطاق واسع بين الناس، ليس من جيوبهم الخاصة لكن مما تخصصه الدولة ـ وهو كثير ـ للإنفاق الثقافي في العام، فهذا الكتاب أو هذه التحفة، كان يجب أن تكون في أيدي شباب مصر وفتياتها ليرتفع ذوقهم ويرتقي إحساسهم الوطني عن طريق الفن الجميل الرفيع الذى ضحت «تحية حليم» بحياتها كلها من أجل تقديمه. ولا تزال الفرصة متاحة لذلك، لو أن هذا الكلام وجد من يقرؤه وينصت إليه.

أما الملاحظة الثانية فهي أن تحية حليم سوف تبلغ عامها الواحد بعد الثمانين في عيد ميلادها القادم، فهل يتفضل أسيادنا وتيجان رءوسنا من المسئولين الثقافيين بالاحتفال بهذه الفنانة النبيلة الموهوبة التي أعطت لبلدها كل حياتها دون أن تطلب شيئًا من أحد؟ إن يوم ميلادها الحادي والثمانين مناسبة عظيمة لتكريم هذه الفنانة ولفت الأنظار إليها وإشاعة فنها وقصة حياتها القائمة على الاجتهاد الشاق والتضحية العالية بين الأجيال الجديدة التي تبحث عن مثل أعلى حقيقي، يتعلمون منه، ويشعرون بأنه قوة محركة لهم بين مصاعب الحياة المختلفة.

وأتمنى أن يعرض التليفزيون في إحدى قنواته الرئيسية بهذه المناسبة فيلمًا تسجيليًا قصيرًا بالغ الرقة والجمال عن «تحية حليم» هو فيلم «عزف منفرد» من إخراج الفنان يوسف أبو سيف.

إن لم يفعل «أسيادنا» المسئولون الثقافيون ذلك فسوف أدعو صديقي الفنان الجميل المبدع محمد منير إلى إقامة حفل كبير يحييه بصوته المؤثر، ولو في ميدان عام أو في حديقة مفتوحة، ويكون هدف هذا الاحتفال هو تكريم «تحية حليم» فمحمد منير نوبي، وفيه وفاء لأصوله وجذوره، والنوبة لها في فن تحية حليم مكانة لا تقل أهمية عن مكانة «القطط»! ولعل محمد منير يستجيب لدعوتي ولا يخذلني كما أتوقع أن يخذلني الذين أدعوهم إلى تكريم «تحية حليم» في عيد ميلادها الحادي والثمانين: 9 سبتمبر سنة ألفين!

بعض أوراق الورد

إذا أردت أت تمدح امرأة أو أردت ــ ولا مؤاخذة ــ أن تغازلها فسوف تقول لها: أنت غزال، أو أنت وردة، أو أنت قمر 14، أما هذه المرأة العجيبة فإنك إذا أردت أن تسعدها سعادة غير محددة فقل لها: ياقطة! ذلك لأنها تعشق القطط، وتجد فيها دفئًا وحنانًا ربما لم تجده بين الناس، وأحيانًا يعتقد بعض الناس الذين يتميزون بالحساسية والشفافية والصدق وطيبة القلب وحسن النية أن صداقة الحيوانات أفضل من صداقة البشر؛ ذلك لأن الحيوانات هي من أصحاب المبادئ الثابتة التي لا تتغير! وأذكر في هذا المجال عبارة مثيرة قالتها زوجة الرئيس الأمريكي الأسبق «هاري ترومان» عندما كانت هي السيدة الأولى في البيت الأبيض الأمريكي، فقد ضاقت هذه السيدة، وكانت من أسرة ريفية بسيطة، بما رأته حولها من شكليات ومجاملات ونفاق وغير ذلك مما يحيط بالسلطة في كل مكان وزمان فعبرت عن ضيقها من ذلك كله بقولها إذا أردت أن تجد صديقًا في واشنطن فعليك أن تشتري كلبًا! إن «عواطف» الحيوانات لا تتبدل، فالكلب إن أحب إنسانًا وتعلق به فلا فرق عنده بعد ذلك بين أن يكون صاحبه مليونيرًا أو يكون كناسًا لا يملك قوت يومه إلا بصعوبة شديدة، فوفاء الحيوانات لا يتغير، أما الوفاء الإنساني فهو يتغير لأسباب بعضها مقبول ومعقول وبعضها يثير الصدمة والدهشة.

ولعل هذا ما توصلت إليه هذه المرأة التي نتحدث عنها، وهي الفنانة المبدعة الكبيرة «تحية حليم»؛ فقد وجدت في صداقة «القطط» تعويضًا كاملاً عن صداقات

وعلاقات إنسانية تركت في حياتها صدمات قاسية، وحبها للقطط لم يعد سرًا يعرفه أصدقاؤها ومحبوها فقط، ولم يعد من المعلومات التي يعرفها المصريون وحدهم، بل لقد كان حب تحية حليم للقطط له صدى عالمي كبير، وهذه هى القصة كما يرويها الناقد والمؤرخ الفني الكبير الدكتور صبحي الشاروني في كتابه الرائع عن «تحية حليم»، حيث يقول:

«عندما عادت «تحية حليم» من لندن بعد رحلة علاج طويلة لعينيها اللتين أصيبتا بمرض الروماتويد، أقامت معرضا في قاعة «أتيلييه القاهرة» وتحمس الناقد «جبريل بقطر» لأعمالها، فقام بدعوة أصدقائه ومعارفه لمشاهدة المعرض، وكان من بينهم سفير السويد بالقاهرة «أدولف كرونبرج» وزوجته وشدهما سحر لوحات «تحية حليم» وسحر شخصيتها، فنشأت علاقة صداقة وطيدة بين أسرة السفير والفنانة المصرية، وطلبا منها الاستعداد لإقامة معرض لأعمالها في «استكهولم» يستمر ثلاثة أشهر مع دعوة للإقامة بمسكنهما في السويد طيلة مدة المعرض، والسفير «أدولف كرونبرج» هو ابن عم ملك السويد في ذلك الوقت، وسافرت «تحية حليم» معهما ومع لوحاتها بعد انتهاء مدة عمل السفير بالقاهرة عام 1966، وعرضت أعمالها في «متحف الفن الحديث» باستكهولم، وكانت معظم اللوحات تصور النوبة قبل التهجير بسبب بناء السد العالي وإغراق بحيرة ناصر أرض النوبة القديمة، وكان «المتحف السويدي يعرض في نفس الوقت أعمال الفنان السيريالي العالمي المشهور «مارك شاجال».. ثلاث قاعات لـ«شاجال» والرابعة لـ«تحية حليم».. ونجح المعرض إلى أبعد الحدود، فكان الإقبال على مشاهدة لوحات «تحية حليم» وطلب اقتنائها مؤشرًا واضحًا على موقعها في سياق الفن العالمي، فكلما كان الفن أكثر التصاقًا بطبيعة أرض مصر وتراثها كان الأقرب إلى العالمية والاحترام الدولي، تماما كما حدث بعد ذلك مع إبداع نجيب محفوظ فلقد استطاعت «تحية حليم» أن تخلق جمهورًا غفيرًا يقدر موهبتها.. ثم وقعت حادثة جعلتها في بؤرة الاهتمام العام لدى كل أفراد شعب السويد، فقد تلقت مكالمة من القاهرة أخبرها فيها الفنان «آدم حنين» أن قطها المحبوب، قد مات! وعندما عرفت بهذا الخبر أعلنت العودة فورًا

إلى القاهرة مع الاعتذار عن عدم البقاء فى «استكهولم» حتى موعد انتهاء الضيافة المقررة لها. كانت كل لوحات المعرض قد بيعت ونشرت الصحف خبر سفرها المفاجئ لحزنها وصدمتها بسبب وفاة قطها المحبوب، وخلق هذا التصرف المتسم بالرقة والحنان المبالغ فيه تعاطفًا فنيًا شعبيًا مع الفنانة وأعمالها، وأصبحت «تحية حليم» فنانة مرموقة يتابع الجمهور أخبارها التي يتم نشرها مع صورة لوحتها «الإنسان» التي يقتنيها «المتحف الوطني» في السويد، ولوحة «فرحة النوبة» بالرئيس جمال عبد الناصر «التى تعرضها هيئة التصنيع بالسويد أيضًا»!

هذه هى القصة الواقعية المؤثرة التي يقدمها إلينا صبحي الشاروني عن الفنانة العظيمة ـ بحق ـ «تحية حليم»، وهي قصة تعكس أمرين واضحين في شخصية هذه الفنانة المبدعة؛ الأول هو موهبتها الفنية العالمية التي لفتت أنظار العالم إليها، والثاني هو شخصيتها الإنسانية النادرة التي جعلت شعبًا أوربيًا، معروفًا بانضباطه وتحكمه الشديد في عواطفه وانفعالاته يهتم بها ويلتفت إليها ويعتبرها نموذجًا إنسانيًا فريدًا جديرًا بأن تتحدث عنه كل الصحف، وأن يتعاطف معه كل الشعب السويدي، حتى بين أفراده البسطاء العاديين.

والذى يعنيني عندما أكتب عن «تحية حليم» هو شخصيتها الإنسانية التي تستحق أن تكون مثلاً أعلى لكل من يبحثون في بلادنا عن «المثل العليا» الحقيقية الكريمة، والتى تمنحها جميعًا نوعًا من القوة والتفاؤل والقدرة على مواجهة الحياة في حب وأصالة، دون أن نكون بحاجة إلى تلويث أيدينا بأساليب اللؤم والمكر والحيلة والدهاء، فليس أجمل في هذه الدنيا من أن يكون الإنسان صاحب هدف واضح نبيل نظيف، والأجمل من «الأجمل» أن تكون «أساليب الوصول إلى هذا الهدف أيضًا مثل الهدف نفسه واضحة ونبيلة ونظيفة»، أما الذين يحاولون تبرير وسائلهم السيئة بقولهم إنهم استخدموها من أجل خدمة أهداف كبيرة، فهم يغالطون مغالطة الأشرار؛ لأن وسائل الوصول إلى الأهداف يجب أن تكون شريفة ونقية وصافية ومن يفعلوا غير ذلك فلتحل عليهم لعنة الأرض والسماء، وغضب الله والإنسان في كل مكان وزمان.

تحية حليم الإنسانة مثل أعلى للإخلاص والاستقامة وقوة الإرادة، وهذا هو الجانب الذى أحب التركيز عليه؛ لأن الجانب الفني في شخصيتها يستطيع النقاد والعلماء في الفن التشكيلي أن يتحدثوا عنه أفضل مني، فأنا لست من المتخصصين في هذا الفن الجميل وعلاقتي به هي علاقة المتذوق الذى لا يملك أمام روعة لوحات تحية حليم إلا أن يقول وقلبه يهتز طربًا... الله، ما كل هذا الجمال الذى أبدعته هذه الموهبة المصرية العربية العالمية الرائعة!

أما تفسير هذا الجمال فهو مهمة النقاد المتخصصين.

لقد تعرضت تحية حليم لمصاعب انتصرت عليها بقوة إرادتها، وأصالة موهبتها وصفاء قلبها. وعندما نقرأ بدقة وأمانة طريقتها النبيلة في التعامل مع الصعوبات العسيرة التي واجهتها نجد أمامنا تجربة فريدة نعلم منها الكثير في مواجهة الحياة، وأكبر تجربة قاسية واجهتها «تحية حليم» هي تجربة زواجها من زميلها الفنان الكبير حامد عبد الله، فقد أحبته تحية من كل قلبها، وكانت أرستقراطية وابنة لأسرة ثرية، وكان هو فقيرًا وابنا لمزارع من بيئة شعبية، فكسرت «تحية حليم» الحواجز الاجتماعية والاقتصادية وتجاوبت مع ما أبداه حامد عبد الله نحوها من عواطف وتزوجته سنة 1945، ويفسر الناقد الكبير صبحي الشاروني هذا الزواج بقوله: كان التعاون بين «تحية حليم» وحامد عبد الله مقدمة مناسبة للارتباط بالزواج، فبعد عامين من التعارف بينهما كان الحب قد نما في قلبيهما، تسانده المصالح المتبادلة، فهو بحاجة إلى التعرف إلى أبناء طبقتها الأرستقراطية الذين يقبلون على اقتناء لوحاته، وهي في حاجة إلى من يخرجها من المجتمع الأرستقراطي المرفه لتغوص في أعماق الحياة الشعبية والريفية، وتتعرف إلى حقيقة مصر من الداخل بعد أن كانت تشاهدها من سطح مجتمعها الأرستقراطي المغلق».

هكذا تزوجت تحية حليم الأرستقراطية، من ابن البيئة الشعبية المتواضعة حامد عبد الله. لكن هذا الزواج تعرض لأزمة عنيفة مرتين؛ في المرة الأولى استطاع الحبيبان

أن يتغلبا على الأزمة، وفي المرة الثانية صممت «تحية حليم» على الطلاق والفراق.. وعاشت وحدها حتى الآن.

كانت المرة الأولى بعد عام واحد من الزواج، حيث تم الطلاق الأول، وقصته كما يحكيها صبحي الشاروني وقعت على هذه الصورة:

«.. كان زواج «تحية حليم» وحامد عبد الله عام 1945 حديث المجتمع، لما كان بينهما من فوارق طبقية كبيرة، وقد غادرا القاهرة بعد الزواج ليعيشا في الإسكندرية للرسم طول الوقت مسجلين معالمها، حتى أقاما معرضهما المشترك عام 1945 ـ أي العام الأول للزواج ـ وذلك في «أتيليه الإسكندرية» وفي إحدى رحلات الرسم عام 1946 أمام صخور الشاطئ «الإسكندراني» طلب منها زوجها أن يجلس مكانها ويصلح ما رسمته، فانتفضت واحتضنت لوحتها رافضة أي تدخل في عملها مؤكدة أن اللوحة تعبر عن شخصيتها، وصرخت «تحية» في زوجها قائلة: «لا تمد يدك» واستفحل الخلاف بينهما وعادت «تحية» إلى والدها بالقاهرة وطلبت الطلاق بعد زواج لم يستمر أكثر من عام واحد.

كان هذا هو الطلاق الأول وبعدها، وخلال عام كامل بعد الطلاق اكتشفت تحية حليم أنها لم تبلغ مرتبة كبار الفنانين، هذا بالإضافة إلى تضخم إحساسها بالوحدة، خاصة عندما توفي والدها في هذه الفترة ففقدت سندها الأول، وتضاعف إحساسها بحاجتها إلى رجل يحميها، فاستجابت لإلحاح أمها التي كان الزوج «حامد» يتردد عليها باستمرار طالبًا رد «تحية إليه».

وعادت تحية حليم إلى زوجها الحبيب الفنان حامد عبد الله. وكان حلمها بعد هذه العودة هو الدراسة الفنية الأكاديمية الدقيقة في باريس وسافرت تحية مع زوجها إلى باريس سنة 1949، وهناك كما يقول صبحي الشاروني «التحقت بأكاديمية چوليان، وهي من أعرق الأكاديميات الخاصة، ثلاث سنوات قاسية، كانت والدتها ترسل إليهما 25 جنيًا شهريًا، لا تكفي السكن والطعام والدراسة، وتضحي «تحية حليم» بكل مباهج الماضي من أجل «عشقها للفن».

لقد سيطر عليها هذا العشق إلى حد الاستمتاع بصعوبات الحياة التي تفوق طاقة البشر. وقد استثمرت الفنانة السنوات الثلاث التي قضتها مع حامد عبد الله في باريس أفضل استثمار. لم تترك ساعة واحدة دون أن تضيف إلى خبراتها الفنية شيئًا جديدًا، مئات الدراسات في أكاديمية «چوليان» ورسوم سريعة للناس والشوارع والمباني وهى جالسة في المقهى المجاور لمسكنها في حي «شاتليه» مع دراسة تشريح الجسم الإنساني في جميع الأوضاع».

ثم «أجبرها مرض والدتها على العودة من باريس إلى مصر سنة 1951، ولحق بها زوجها حامد عبد الله بعد بضعة أشهر عام 1952، فاستأجرا مسكنًا في شارع «مريت باشا» بوسط القاهرة، واتخذاه مدرسة لتعليم الفنانين الشباب من المصريين والأجانب، وقد انتقلت والدتها المريضة لتعيش معهما، حيث سهرت «تحية» على رعايتها لمدة عام ونصف عام حتى توفيت هذه الأم سنة 1953».

ثم جاءت الأزمة الثانية المؤلمة في العلاقة بين «تحية حليم» وزوجها الفنان حامد عبد الله وانتهت هذه الأزمة بالطلاق الثاني والأخير بينهما، حيث عاشت تحية حليم من يومها سنة 1957 وحدها إلى الآن معتمدة على فنها وإرادتها القوية، ومنحت حياتها كلها لبلدها ولوحاتها وقططها!.

ومشهد الطلاق يسميه الناقد صبحي الشاروني باسم «المشهد السينمائي التقليدي»، وهذا هو المشهد العجيب كما يصفه الناقد الكبير حيث يقول: «في عام 1956 قرر حامد عبدالله السفر إلى الدنمارك لإقامة معرض لأعماله هناك، وطالت غيبته لعام كامل. وعندما اختار مدير مكتب شركة الطيران «الإسكندنافية» لوحة «المظاهرة» من مرسم «تحية حليم» في شارع «مريت باشا» معلنًا أنه لا يملك ثمن اللوحة نقدًا لكنه يستطيع تقديم الثمن في شكل تذكرة طيران مفتوحة لأية جهة في أوروبا، عندئذ طلبت أن تكون المحطة الأولى في «كوبنهاجن» عاصمة الدنمارك لتحقق مفاجأة اللحاق بزوجها هناك، وعندما وصلت إلى مسكنه فوجئت بزوجته الدنماركية، ولم يستمر

لقاؤها مع حامد عبدالله سوى بضع ساعات، طارا بعدها إلى ألمانيا وروما ووضعت «تحية حليم» مشكلتها أمام الدكتور ثروت عكاشة الذي كان يعمل في ذلك الوقت مستشارًا عسكريًا بالسفارة المصرية في روما، وتم توثيق الطلاق في السفارة يوم 30 إبريل سنة 1957. وعاشت تحية حليم بعد هذه الحادثة راهبة في محراب الفن، وقد تقدم عدد من الشخصيات المعروفة بطلب الزواج منها، لكنها ظلت مخلصة لذكرياتها في حبها لحامد عبد الله «رغم كل ما حدث» وأعلنت زواجها من الفن «وحده» وعزمت على أن تشق طريقها بمفردها».

وهى تقيم الآن ومنذ سنوات طويلة في شقتها المتواضعة فوق سطح أحد المنازل بالزمالك حيث يصف الفنان الكبير حسين بيكار علاقة «تحية حليم» بشقتها في هذه الكلمات البديعة فيقول: «لا يمكن إغفال حميمية المكان في فن «تحية حليم»، فهذه الحميمية كانت دائمًا الدافع الأول لعلاقة بالغة العمق مع اللوحة، وكانت هذه الحميمية هي المؤشر المباشر الذى يملي عليها موضوع لوحاتها المتفائلة والمأساوية على السواء، وليس اعتكافها الاختياري في شقتها شديدة التواضع والأناقة التي تشغل سطح أحد منازل الزمالك إلا نوعًا من هذا الاعتكاف الرهباني الذي يؤكد ويعمق حبها الجارف للمكان، ولغة المكان، وذكريات المكان، وظروف المكان».. تاريخ حافل يضم بين قوسين معاناة ملحمية حقيقية وليست من صنع الخيال. والمكان عند الفنانة «تحية حليم» ليس الشقة المتواضعة بالزمالك فقط، لكنه المكان المعنوي الأرحب والأشمل والأعظم.. مصر كلها، والتي كانت الفنانة تنفعل بكل ما يطرأ عليها من أحداث فتترجمه ببلاغتها الساذجة، وبراءتها الملائكية النقية، فيكون له وقع أكبر وأعمق من الخطب الرنانة والأناشيد التي تقترب من الصخب دون أن تمس شغاف القلب».

(*) عند نشر هذا الفصل كمقال في الأهرام في 2000/8/27 كان رجاء النقاش قد دعا فيه «أصحاب القلوب الجميلة والأذواق الرفيعة» إلى الاتصال بالفنانة «تحية حليم» في عيد ميلادها الذي اقترب 2000/9/9 ونَشَرَ رقم تليفونها وعنوانها.



الأوجاع والزغاريد..!

هل يوجد إنسان لديه قدرة على تحويل الأحزان إلى أفراح، والهزائم إلى انتصارات، والأوجاع إلى زغاريد، وتكشيرة الوجه إلى ابتهاج وانشراح؟ إن الفنانة المبدعة الكبيرة «تحية حليم» تملك هذه القدرة السحرية. وقل معي: سبحان الله الذي جعل هذه الإنسانة الرقيقة الضعيفة التي تعاني أمراض القلب والروماتويد، قادرة على تحقيق هذا كله في لحظات من أصعب اللحظات التي يمكن أن يمر بها الإنسان في أي مكان أو زمان. وهذه قصة من قصصها التي وقعت لها، ومارست فيها سحرها العجيب، وهي قصة يرويها مؤرخ حياتها الناقد الفني الكبير الدكتور صبحي الشاروني. والحق أنني عندما قرأت هذه القصة تصورت أن الناقد الكبير إنما «يضحك علينا» ويروي لنا من خياله قصة رومانسية ناعمة لطيفة سهلة لا علاقة لها بواقع الحياة. ولكنني انتبهت في النهاية إلى أن هذه القصة النبيلة هي قصة واقعية، بطلتها هي أضعف خلق الله وأقواهم في الوقت نفسه، وهى إنها «توحة» كما يسميها ويناديها الفنان الإنسان الكبير حسين بيكار، أو «ماما توحة» كما يسميها أحيانًا أخرى برغم أنه أكبر منها في العمر؛ وذلك لأن حنانها على أصدقائها ومعارفها وقططها هو حنان يفوق كل حنان. وهو حنان تقدمه بلا مقابل إلى الناس والدنيا والقطط، فهي تعيش معتمدة على نفسها رغم مرضها، ولا يسليها ويؤنس وحدتها إلا قططها الحبيبة التي تغيرت على يديها الحانيتين، فالقطط عديمة الوفاء كما هو مشهور عنها؛ لأن القطة تأكل وتنكر، إلا عند «تحية حليم»، فإنها تأكل وتعترف بالفضل وتمتلئ بالعاطفة والوفاء؛ لأن هذه القطط لم تجد عند «تحية

حليم» طعامًا فقط، ولكنها وجدت حنانًا يفوق كل حنان، فما كان من القطط إلا أن ترد على الحنان الصادق بالوفاء الجميل.

أما القصة التي يرويها صبحي الشاروني، والتي ظلت في بداية الأمر قصة رومانسية خيالية، فها هي بكلمات ذلك المؤرخ والناقد المبدع الكبير:

«.. يشاء القدر أن يواجه «تحية حليم» كما يواجه أبطال المآسي الكبرى بعنفه وقسوته، فتكتشف عام 1963 إصابة عينيها بالروماتويد، وهو مرض غير محدد العلاج حتى اليوم، وحصلت «تحية حليم» على قرار من الرئيس جمال عبد الناصر بعلاجها على نفقة الدولة في لندن، وقضت عامًا كاملاً نزيلة المستشفى، حيث رافقتها أختها لمدة ثلاثة أشهر. والعلاج على نفقة الدولة يعني دفع نفقات المستشفى فقط، ولما بدأت حالتها في التحسن، طلبت من طبيبها المعالج أن يأذن لها بالرسم، فواجهتها مشكلة تدبير ثمن الخامات، فأرسلت إلى تلميذتها التي ترددت على مرسمها في القاهرة وتعلمت الرسم على يديها قبل عشر سنوات، واسمها «روز آدم» بالنرويج، تطلب منها إرسال مبلغ لشراء أدوات الرسم، على أن ترد إليها مقابله بعض لوحاتها لتقوم ببيعها في النرويج، وتسترد نقودها، وترسل الباقي لـ«تحية حليم» الراقدة بالمستشفى في لندن.

هكذا يتغلب الأبطال على عناد القدر وينتصرون على جبروته بذكائهم ومواهبهم، وتقول «تحية حليم» إنها اشترت بهذه النقود أدوات للرسم، وملابس لمواجهة شتاء لندن. ثم قامت «روز آدم» بترويج لوحات «تحية حليم» في مدينة «أوسلو» بالنرويج، وكانت هذه اللوحات تمثل مناظر من القاهرة، ووجوه الممرضات في المستشفى الذي تنزل فيه، وقبل حفل رأس السنة عام 1964، قامت «تحية حليم» بتزيين ردهات المستشفى بالزينات الورقية الملونة، مستعيرة الأسلوب «الياباني» في تشكيل هذه الزينات. كما أهدت المستشفى لوحتها «الهودج» مع «بورتريه» لرئيسة الممرضات «سستر لانج» وخلال الاحتفال بأعياد رأس السنة في ذلك العام (1964) قام الأطباء والممرضات بتكريم «تحية حليم»، باعتبارها المريضة التي أشاعت البهجة بألوانها ورسومها وزيناتها في جميع أنحاء المستشفى».

تلك هي القصة الواقعية التي يرويها صبحي الشاروني، فهل يصدقها أحد؟! أنا من الذين يصدقونها، فقد كانت «تحية حليم» مريضة. نعم.. ولكن هذه المريضة التي منحها الله موهبة «النبوغ الإنساني» هي التي أسعدت أطباءها وممرضيها وكل نزلاء المستشفى. ولم يكن ذلك عجيبًا على امرأة مثلها قادرة على إسعاد القطط فكيف لا تكون قادرة على إسعاد الناس؟!

قد يقال إن «تحية حليم» إنسانة صاحبة قلب كبير قادر على تحويل الدموع إلى ابتسامات، والآهات إلى أفراح، ولكن ما علاقة ذلك كله بالفن؟ الحقيقة أن فن «تحية حليم» مثل إنسانيتها، قائم على الصدق واستقلال الشخصية والإخلاص والأمانة. وفي فن «تحية حليم» كثير جدًّا من المعاني العالية الرفيعة، وفيه أضواء وأنوار كاشفة أمام الذين يشعرون أنهم حائرون وهم يبحثون في غابة الحياة والفن عن طريق واضح مستقيم، وعن نبع للجمال فياض، لا يتوقف أبدًا عن العطاء. وهنا أصل إلى نقطة أساسية، وبعدها أشير إلى معانٍ أخرى، غاية في الجمال والنبل وتجسيد المثل الأعلى في شخصية «تحية حليم» لكل من يبحثون عن مثل أعلى في الحياة أو الفن. هذه النقطة التي أعنيها هي أن «تحية حليم» قد نفضت عن روحها ثوب «الأرستقراطية المادية» التي كانت تنعم بها، وكانت تستطيع أن تعيش في ظلها إلى الآن، وهي في الواحدة والثمانين، مثلما تعيش الأميرات التي تنهال عليهن النعمة ـ بالميراث ـ ودون حاجة إلى جهد أو تعب. ولكنها نفضت هذا الثوب الأرستقراطي المادي واحتفظت بالأرستقراطية الروحية والمعنوية، فارتفع شأنها في عيون كل من عرفوها وشاهدوا لوحاتها، واهتزوا لكل ما في هذه اللوحات من جمال ولطف وإنسانية.

يقول عنها الإنسان والفنان الكبير حسين بيكار:

«ليست أرستقراطية المنشأ التي عاشتها «تحية حليم» في طفولتها وصباها، والتي تشكل نسيجها الإنساني النبيل إلا هذا القبس النوراني الذى يضيء عالمها في كل زمان ومكان، وهي ليست أرستقراطية طبقية متعالية، ولكنها أرستقراطية شديدة الرهافة

والحساسية، تنفعل وتفعل دون تردد أو تلعثم، وتشدو بثقة وأستاذية، تساندها تجاوب واحتكاكات بالجوهر دون المظهر، ولم يكن ماضيها الفني والأكاديمي الذي قضته في مصر وباريس مستعدًا لكي يفسح في قلبها مساحة للغرور أو التعالي أو التفاخر، فقد كان الفن بالنسبة لها نتيجة طبيعية وإفرازا عاطفيًا مثل التنفس ونبض القلب، كما لم تفسح طموحاتها مكانًا للتزاحم على «النجومية» عن طريق وسائل الإعلام والعلاقات الشخصية، وكان تفردها الفدائي ظاهرة مشرفة في الأفق، جديرة بأن يتمثل بها الواقفون على الضفة الأخرى من محترفي الفن والهواة».

تلك هى كلمات حسين بيكار عن «تحية حليم»، وهي كلمات جميلة وليست غريبة على بيكار الذي يرسم بالكلمات ويكتب بالألوان والفرشاة.

وكلمات أخرى للناقد الكبير صبحي الشاروني يقول فيها: «وكل ما نستطيع فعله ـ نحن النقاد ـ في مواجهة هذا السحر في شخصية «تحية حليم» وفنها هو محاولة شرح الجوانب الظاهرة والباطنة في الأعمال الفنية، وفي حياة الفنانة، والحديث عن موقعها من عصرها ومن التاريخ والزملاء، ولكن كل هذا لن يفسر سبب الإجماع المطلق على روعة أعمالها وعظمتها وعمق تأثيرها «الساحر» في المشاهدين، من الممكن أن نرد ذلك إلي الموهبة، ولكن هناك موهوبين آخرين لم يحققوا هذا الإجماع، ومن الممكن أن نتصور أن السبب هو مصادر إلهامها، لكن هذه المصادر ـ كلها أو بعضها ـ توافرت للعديد من معاصريها.. ومن الممكن أن نرجع هذا التقدير إلى شخصيتها المحبوبة، ولكن إلى أي مدى يمكن أن تحقق هذه الشخصية المحبوبة كل هذا الإجماع كل هذه السنوات، وفي كل مكان ذهبت إليه رسومها؟! إنه «سحر الفن» الذي يجعل كل من يشاهد لوحاتها تشده إليها، رغم أنها غير واقعية، ومع ذلك فإنها شديدة التعبير عن الواقع، وهي غير سلفية، ومع ذلك فهي تشعل حنيننا إلى الماضي، كما أنها قادرة على التحليق بنا في المستقبل بكل أحلامه وآماله وبطريقة خفية مستترة، إن لوحاتها تصور عالمًا أسطوريًا، شديد التميز والخصوصية، ورغم فطريته فهو شامخ يشبه الصرح الكبير العالي، ورغم بساطته فله تأثير طاغ ساحر!

ولابد من الوقوف هنا عند تأثير «النوبة» في فن «تحية حليم»، فقد كانت «النوبة» هي عنصر التحول الأساسي في فنها ومشاعرها، فقد سافرت إلى النوبة مرتين، وكانت المرة الثانية هي الأهم، وكانت هذه الرحلة الثانية سنة 1962 بدعوة وترتيب من وزير الثقافة الأسبق العظيم الدكتور ثروت عكاشة، الذي كان يعرف معنى الثقافة ويحترم المثقفين ويسعى إليهم ولا يطيق أي تقصير في حقهم أو أي إهانة تلحق بهم، ففي رحلة النوبة التي أعدها الدكتور ثروت عكاشة أحسن إعداد للفنانين المصريين، واستمرت شهرًا بالكامل سنة 1962، وجدت «تحية حليم» نبعها الفياض الذي لا يزال يجري ـ دمًا ـ في فنها إلى الآن. ويلخص الناقد الكبير «بدر الدين أبو غازي» الذي كان أيضًا وزيرًا رائعًا للثقافة، وكان عصره مثل الحلم الجميل الذي مر سريعًا على الجميع؛ لأنه لم يبق في الوزارة إلا عدة شهور، (من أواخر سنة 1970 حتى 15 مايو سنة 1971). يلخص «بدر الدين أبو غازي» فن «تحية حليم» في قوله: «إن لوحاتها مسطحات تملأ العين بالجلال والضخامة التي تؤثر في نفوسنا كمصريين فنحس أن الفلاح هو جزء من بنيان شامخ، لا ضعف فيه ولا هزال، ولا رشاقة ولا أناقة أيضًا؛ لأننا منذ تقاليدنا القديمة، لا نعجب بالرشاقة والأناقة، بقدر ما نعجب بالشموخ والضخامة والجلال». نعم يا صديقي الراحل العزيز بدر الدين أبو غازي: نحن ـ في أعماقنا ـ نرفض الرشاقة المفتعلة، والأناقة المائعة، ونميل بطبيعتنا إلى قوة الروح وعفاف النفس، والرأس المرفوع حتى في أشد لحظات الضيق والحزن.

أما «تحية حليم» نفسها فتقول عن التأثير الأساسي للنوبة في فنها وحياتها «إن البيئة التي أحببتها وتأثرت بها هي النوبة؛ أحسست بالإنسان النوبي وانبهرت بأخلاقه ومعاملاته، وصدقه، وأمانته، تأثرت أيضًا بطبيعة المكان: النيل والنخيل والجبل، إنها طبيعة ذات مذاق خاص، هناك كنت أشعر فعلا بأن هذه المنطقة تحمل حضارة آلاف السنين».

وتقول تحية حليم مرة أخرى في تلخيص كامل لفلسفتها الفنية: «إن موضوعاتي تتناول غالبًا الأشخاص البسطاء والبيئة الشعبية والمشاهد المصرية ذات المذاق

المحلي البحت، ولا يخرج المضمون في جميع أعمالي عن تمجيد الإنسان، لأنه ـ عندي ـ هو كل شيء، وهو صانع كل الأعمال الكبيرة في العالم، وهو الذي يضفي البهجة علي الوجود بأكمله».

وحول علاقة «تحية حليم» بالنوبة يقول الناقد محمد شفيق: «لقد استشعرت الفنانة أعمق أبعاد النوبة منذ زيارتها لها عام 1962، فقد كان كل شيء يقوم بإيجاد التناغم بين العالم الخارجي وعالم الفنانة الداخلي، لقد تملكتها الرغبة في معايشة هذا العالم؛ لأنه الأقدر على تجسيد عالمها الذاتي، فهناك عثرت على الموضوع الذي يحمل أدق نبضات عالمها الخاص، فكل ما يحمله من بساطة وبُدَائية وعفوية إنما يجري في أعماق شخصيتها. لذلك صنعت من كل ما رأته وعايشته ولمسته أسطورة وحلمًا هو أبعد الأشياء عن مجرد تصوير خارجي لمشهد نوبي».

تلك هي «تحية حليم»، الفنانة التي حولت الأوجاع والآلام إلى زغاريد وأفراح، وانتصرت بروحها القوية على المرض، وواجهت الخيانات والسفالات بالصبر والتعالي وقوة الاحتمال والإرادة وشرف الموهبة والقلب والضمير. وفيما أتصور فإنها قد انتصرت وحققت نموذجًا رائعًا لإمكان النجاح «النظيف» دون التواء أو مؤامرات ودون الاعتماد على أحد، وواجهت الدنيا بمفردها فكانت، وهى وحيدة، أكبر من كل الصغائر والصراعات والتفاهات، واستطاعت أن تسمو بفنها وروحها، فكانت في سموها أعلى من كل الذين أرادوا أن يلحقوا الأذى بها أو يطفئوا شمعتها التي لا تزال مضيئة إلى الآن.



أمينة السعيد



امرأة لكل العصور

□□ لا أتردد بعد رحيل سيدتي وأستاذتي أمينة السعيد في أن أقول: إنها كانت امرأة لكل العصور. وأعني بذلك أنها كانت «المرأة المثالية» التي يمكن أن يعتز بها أي عصر وأي جيل. وقد يتصور البعض أننا نقول هذا الكلام تحت تأثير«الموت» وما يفرضه علينا من جلال وبحث عن محاسن الراحلين.

والحقيقة أنني كنت أقول هذا الكلام في حياة أمينة السعيد وأكرره الآن بعد الرحيل.

ولدت أمينة السعيد في أسرة معروفة وكان أبوها طبيبًا ميسورًا ومشهورًا من المنصورة، وكان أهم من يساره وشهرته أنه كان رجلاً متفتح العقل، متطلعًا إلى الحضارة الحديثة دون أن يفقد توازنه أمام هذه الحضارة فيصبح من أصحاب «عقدة الخواجة» المعروفين لدينا جميعًا، والذين يحرصون على أن يتكلموا في بيوتهم لغة غير اللغة العربية، وينظروا إلى المصريين على أنهم جميعًا من «الفلاحين»، وكلمة «الفلاحين» عند أصحاب «عقدة الخواجة» تعني الجهل والانحطاط الاجتماعي، ويكفي أن نعلم أن بعض «باشوات» مصر ذوي الأصول التركية والشركسية كانوا يقولون عن الزعيم الوطني الكبير سعد زغلول إنه «فلاح» وكانوا يقصدون بذلك مهاجمته وتصغير شأنه والإيحاء للجميع بأن مثل هذا الرجل لا يصلح للسياسة أو.. الزعامة أو الحكم، فهذه الوظائف العليا كلها لا تصلح للفلاحين وأبناء الفلاحين، وإنما تصلح فقط لأبناء «البيوتات» الراقية أصحاب الأصول التركية والشركسية.

لم يكن والد أمينة من هؤلاء الذين يحتقرون اللغة العربية أو ينظرون بازدراء إلى الفلاح المصري، رغم أنه كان من أنصار الحضارة الحديثة وضرورة الاستفادة منها في سلوك الإنسان المصري وعاداته وأفكاره وتقاليده..

وكان من أهم ما يميز الحضارة الغربية أنها أخذت بفكرة المساواة بين الرجل والمرأة في التعليم وفي كل فرص الحياة الأخرى.

وهذه الفكرة أصبحت بالطبع ـ ونحن في أواخر القرن العشرين ـ من البديهيات، ولا يكاد يوجد في مصر الآن فرد واحد يريد أن يحرم بناته من التعليم على سبيل المثال، ولكن هذه الفكرة كانت في الربع الأول من القرن العشرين من أصعب الأفكار في مصر، وكان تعليم البنات في تلك الفترة من أكثر الأمور التي تجد معارضة اجتماعية شديدة. وفي هذا المناخ كان والد أمينة السعيد من المؤمنين بضرورة تعليم المرأة حتى أرقى مراحل التعليم.

وفي هذه البيئة المتحضرة تعلمت أمينة السعيد وكل أخواتها البنات، ودخلت أمينة كلية الآداب في أول «دفعة» نسائية تدخل هذه الكلية عندما كان عميدها طه حسين، وقد دفع طه حسين ثمن سماحه بدخول المرأة إلى كلية الآداب، فثارت عاصفة كبيرة ضده، وكانت التهمة الموجهة إليه هي أنه داعية إلى الفساد؛ لأنه سمح باختلاط «البنات والصبيان» في الجامعة وتلك جريمة أخلاقية غير مقبولة.

وتم «طرد» «طه حسين» من «عمادة» كلية الآداب سنة 1930 بأسباب ملفقة. وكان السبب الحقيقي هو أنه سمح لأمينة السعيد وسَهِير القلماوي وزميلات لهما بدخول كلية الآداب والجلوس جنبًا إلى جنب مع الشبان وفي هذا ما فيه من «إثم وفجور وعدوان»!!

المهم أن «أمينة السعيد» دخلت كلية الآداب في عهد عميدها طه حسين واختارت أن تكون طالبة في قسم اللغة الإنجليزية، وتخرجت في الكلية فيما أذكر سنة 1934 وكانت في العشرين من عمرها حيث إنها من مواليد 1914.

يقول أستاذنا الدكتور لويس عوض في كتابه «أوراق العمر» ـ وكان زميلاً لأمينة السعيد في قسم اللغة الإنجليزية ـ «إن أمينة السعيد كانت أجمل فتاة في كلية الآداب في تلك الفترة...» والعهدة على الدكتور لويس عوض فيما يقول فهو صاحب «الشهادة» والحق أنه أيضًا كان من أصحاب الأذواق السليمة.

وأنا لم أعرف أمينة السعيد في شبابها ولكني رأيتها وهي في منتصف العمر، وذلك عندما التحقت بدار الهلال سنة 1965، وكنت أنا قد تجاوزت الثلاثين بشهور، وكانت هي في الخمسين.

ولم يلفت نظري جمالها بل لفت نظري أنها صاحبة شخصية قوية جذابة مثقفة متحضرة إلى أبعد الحدود.

كانت أمينة السعيد عندما التقيتها «تجسيدًا» حيًّا لحلم والدها في أن تكون المرأة متعلمة وقوية وقادرة على الاعتماد على نفسها في مواجهة الحياة.

وكانت تجسيدًا قبل ذلك للنموذج الذي دعا إليه قاسم أمين في كتابيه الشهيرين: «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة».

وكانت تجسيدًا لحلم طه حسين في أن تتعلم المرأة وتقف بقوة على مسرح الحياة مع الرجل وتثبت للعقول المريضة أن تعليم المرأة وعملها هما من أكبر الفضائل في حياة المجتمعات الإنسانية السليمة.

والحق، كل الحق، ولا شيء غير الحق، أن أمينة السعيد كانت مثلاً أعلى للمرأة كما ينبغي أن تكون عليه المرأة في مجتمعنا وفي غيره من المجتمعات.

لقد تعلمت في قسم اللغة الإنجليزية فاجتهدت في تعلمها حتى أصبحت تجيد اللغة الإنجليزية إجادة تامة وكانت تتحدث بها كأنها مولودة في لندن لا في ريف مصر.

وأصبحت أمينة السعيد من أفضل الدارسين للأدب الإنجليزي ولو تخصصت في هذا الأدب لكانت من أعظم الباحثين فيه، ولها كتاب عن الشاعر الإنجليزي الكبير «بيرون» هو من أجمل الكتب في المكتبة العربية وقد قرأته عدة مرات واستفدت منه كثيرًا، وأعود إليه دائمًا لأقرأه وأستمتع وأضيف إلى معلوماتي ما هو مثمر ومفيد.

أي إن أمينة السعيد لم تأخذ الدراسة في كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية على أنها مجرد «موضة» جديدة، هي «موضة» دخول البنات إلى الجامعة بفضل طه حسين، بل أخذت نفسها بمنتهى الجد والاهتمام بالدراسة والتفوق فيها.

وكانت أمينة السعيد إلى جانب دراستها، وهي طالبة، تحرص كل الحرص على الاستفادة من كل حقوقها المباحة والمتاحة.

فقد كانت لاعبة تنس متميزة، وكانت تذهب إلى ملاعب التنس في الجامعة بملابس التنس المعروفة دون أن تخشى شيئا أو تخاف من أحد.

واذكروا أن ذلك كان يحدث في أوائل الثلاثينيات من هذا القرن! فملابس التنس للنساء في تلك الفترة كانت بالنسبة للكثيرين «فضيحة بجلاجل» ولكن أمينة السعيد كانت تعرف نفسها وتؤمن بالمبادئ والقيم الصحيحة.

كانت تعرف أن جمالها وهى في شبابها مرتبط بالصحة والرياضة، ولم تكن تسمح لأحد أن يحرمها من ذلك كله لمجرد أنه صاحب تفكير منحرف ونظرة زائغة، وأنه يقول عن ملابس «التنس» للنساء أنها غير لائقة.

كانت أمينة السعيد تؤمن بالحياة، وتمارسها في نشوة، وترى أن كل نشاط صحي ومفيد للعقل والجسم هو من الفضائل ولا يمكن أبدًا أن يكون من الرذائل.

ولعل ما تمتعت به أمينة السعيد من صحة طيلة حياتها، وقد ماتت بعد أن تجاوزت الثمانين وظلت في منتهى النشاط حتى الأسابيع الأخيرة.

لعل ذلك يعود إلى اهتمامها الكبير بالرياضة في بداية حياتها مما منحها ـ في بقية مراحل عمرها ـ بنيانًا قويًا قادرًا على العمل المنتظم والاحتمال الكبير.

وكما تميزت أمينة السعيد بالصحة والعافية في معظم مراحل حياتها تميزت أيضًا بشجاعة عقلية وشجاعة روحية كبيرة.

كان يكفي أن تؤمن بمبدأ أو فكرة حتى تهب للدفاع عما تؤمن به غير عابئة بشيء.

وقد آمنت بمهنة الصحافة فأعطتها عمرها كله، ويحسب لها أنها كانت المؤسسة الحقيقية للصحافة النسائية الشعبية في مصر والوطن العربي كله، فقد أسست مجلة «حواء» في أواسط الخمسينيات، وظلت رئيسة لتحريرها ما يقارب ثلاثين سنة متصلة.

ولم يكن في العالم العربي شيء اسمه الصحافة النسائية الشعبية قبل أمينة السعيد.. كان هناك مجلات من أمثال «بنت النيل» لصاحبتها الدكتورة درية شفيق، ولكنها كانت مجلة أرستقراطية ناعمة، وكانت تصدر من مصر وكأنها تصدر في باريس.

فجاءت أمينة السعيد وأنشأت مجلة «حواء» وجعلت منها جامعة كبرى للنساء العاملات الكادحات بنات الشعب في كل مكان.

وكان اشتغال أمينة السعيد بالصحافة مغامرة كبيرة في عصرها، ومع ذلك فقد اقتحمت هذه السيدة الرائعة مجال العمل الصحفي؛ لأنها آمنت به، وأخلصت له، واستعدت لسائر التضحيات فيه.

وقد ظلت أمينة السعيد مخلصة لعملها الصحفي حتى الأسابيع الأخيرة التي أقعدها فيها المرض فالتزمت البقاء في بيتها، وأنا أظن أن هذه الأسابيع كانت أتعس الأسابيع في حياة أمينة السعيد.

كانت منظمة إلى حد رائع في عملها، وكانت أول من يدخل دار الهلال قبل التاسعة صباحًا، ولم تكن تتخلف عن ذلك يومًا واحدًا، إلا إذا كانت على سفر.

لم يكن يباريها في هذا النظام وهذه الدقة إلا أستاذنا العظيم فكري أباظة الذي كان نسخة «رجالية» من أمينة السعيد، أو على الأصح كانت أمينة السعيد «نسخة نسائية» من فكري أباظة، لأن فكري أباظة؛ كان في النظام والدقة مدرسة كبرى وكانت أمينة السعيد أعظم التلميذات في هذه المدرسة بل كانت الأولى على الجميع.

وما أكثر ما يمكن أن يقال عن أمينة السعيد، وما أكبر «الحيرة» التي نقع فيها، نحن الذين عرفناها عندما نريد أن نتحدث عنها، فنجد أمامنا نموذجًا مثاليا للمرأة، بل وأقول إنها كانت نموذجًا مثاليًا لكل إنسان ممتاز وجميل.

كانت موهوبة جدًا، والذين يحبون الأدب من أمثالي يشعرون بالألم؛ لأنها أخلصت للصحافة على حساب الأدب، وقد كتبت في الأربعينيات رواية رائعة هى «الجامحة» ولو أنها أعطت للأدب الروائي بعض جهدها لأصبحت أعظم أديبة أنجبها الأدب العربي في العصر الحديث.

لقد كانت رواية «الجامحة» هي أول رواية نسائية ـ فيما أعلم ـ وكانت أول تصوير دقيق وجريء لأحلام المرأة العربية المعاصرة وهمومها وما تلقاه في طريقها من عقبات وصعوبات.

وتستحق رواية «الجامحة» لأمينة السعيد أن يكون لها مكان في الأدب العربي يوازي مكان رواية «زينب» التي كتبها محمد حسين هيكل سنة 1914 فاعتبرها النقاد أول رواية ـ بالمعنى الفني الدقيق ـ في الأدب العربي المعاصر.

كذلك كانت رواية «الجامحة» التي صدرت في الأربعينيات كما ذكرت هي أول رواية نسائية بالمعنى الفني الصحيح، وهي التي فتحت الطريق بعد ذلك للأدب الروائي النسائي العربي الحديث.

ويطول الحديث عن أمينة السعيد.

الأخلاق العالية، والسلوك المتحضر، والشجاعة في الحق، والقدرة على إدارة الرجال والنساء بأرقى الأساليب وخفة الظل، واتساع الثقافة والتجربة، والتوازن الدقيق بين حياة البيت وحياة المكتب، والابتعاد عن أي منطقة غامضة أو معقدة في العمل والتفكير.. وهذه الصفة الأخيرة هى التي ساعدتها على النجاة بنفسها من أعاصير السياسة، رغم أنها عاشت فترات صعبة كان من العسير أن ينجو منها أحد.

أمينة السعيد: تاريخ طويل، واسم مضيء، وشخصية ناضجة، ومنتجة ومثالية، وامرأة لكل العصور.

و..........

وداعًا سيدتي وأستاذتي: أمينة السعيد..

وداعًا.. أيتها الشجاعة في الحق، المليئة بالحنان مع الضعفاء، الصارخة بغير تردد في وجه الظالمين!

وداعًا أيتها المدرسة العليا في السلوك الطيب، والنظام الدقيق، والثقافة الحقيقية، والذوق الرفيع والأخلاق المتحضرة!

وداعًا.. يامن أراك دائما في غيابك وحضورك.. مثلاً أعلى للنساء والرجال!

وداعًا يا واحة الأمان في دنيا مليئة بالمتاعب والصعوبات.



تلميذة طه حسين

في سنة 1950 كان القرن العشرون قد وصل إلى منتصفه، وكانت السيدة أمينة السعيد قد وصلت في سنة 1950 هذا إلى سن الأربعين، حيث إنها ولدت في 20 مايو سنة 1910، وأبوها الدكتور أحمد السعيد، وكان طبيبًا ناجحا وخطيبًا بليغًا وثائرًا معروفًا من ثوار سنة 1919، أما أمها فهي السيدة «زينب صبور» وكانت على قسط وافر من التعليم الذي كان يسمح به عصرها في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن.

ونعود إلى سنة 1950، ففي هذا العام كتبت أمينة السعيد مقالاً تقول فيه «لا أريد أن أعيش إلى سنة 2000» وفي آخر هذا المقال تكتب أمينة السعيد هذه الكلمات العجيبة:

«إذا كنا اليوم ـ سنة 1950 ـ ننعم في بيوتنا ونبني ونشيد ونسعد ونربي ونمد أولادنا بحكمتنا وعلمنا، ونؤمنهم في الحياة بهدوئنا وسلامنا، فسوف تنقلب الآية عندما يمتد بنا العمر إلى سنة 2000م» أي عندما تصل أمينة إلى سن التسعين فنصبح نقمة عليهم، وعبئًا يثقل كواهلهم، فيعاملوننا بجفاء ـ ولهم الحق ـ وقد زالت حاجتهم إلى حكمتنا وعلمنا وحناننا، وإذا عطفوا علينا فعطف القوي على الضعيف، وإذا أشفقوا علينا فشفقة غير المحتاج للمحتاج، وإذا رغبوا في بقائنا فلا فائدة يفيدونها منا، بل يفعلون ذلك عن ولاء قديم يحبب إليهم رد جميلنا السابق، فيحاولون مدنا بحكمتهم هم، وبعلمهم، ويحاولون إسعادنا بقوتهم وقدرتهم».

ثم تقول أمينة السعيد في آخر مقالها الذى لا تريد فيه أن تعيش إلى سنة 2000:

«هذا مصيرنا ولست أرى فيه ما يجعل الحياة جديرة بأن نحياها، فعسى أن يصونني القدر من محنة البقاء في عام 2000».

هذا هو ما كتبته أمينة السعيد سنة 1950، وقد حقق لها الله ما أرادته، فماتت يوم الإثنين 24 أغسطس 1995، وكانت قد بلغت الخامسة والثمانين وتجاوزتها بثلاثة شهور.

أي أنها ماتت قبل سنة 2000 بخمس سنوات.

وقد أخطأت أمينة السعيد فيما كتبته عن نفسها، وفيما توقعته لمصيرها؛ ذلك لأن أمينة السعيد ظلت حتى آخر لحظة من حياتها موضع احترام الجميع، وكان كل الذين حولها من أهلها وتلاميذها يحبونها، ويلجئون إليها عندما يحتاجون إلى المشورة الصائبة والرأي السديد والحكمة التي لا تخطئ في فهم الأحداث وفي معرفة الناس.

ماتت عزيزة مكرمة من الجميع، وقد كان كل من يعرفونها ويحبونها يتمنون لو أنها عاشت أكثر وأكثر؛ لأنها كانت دائمًا تنصح بالخير، وتلفت النظر إلى الأخطاء، وظلت حتى الأسابيع الأخيرة من حياتها تتطلع إلى المستقبل وتقول لأبنائها وتلاميذها: إلى الأمام أيها الأبناء. لا تتخلفوا عن الدنيا التي تسير ـ بل تقفز ـ في سرعة، ولا تهابوا، ولا تهادنوا الذين يريدون أن يرجعوا بكم إلى الوراء، فالوراء هذا معناه الفقر والجهل والمرض، أما إذا تقدمتم إلى الأمام، فمعنى ذلك أنكم تبحثون عن السعادة الحقيقية لكم ولأبنائكم من بعدكم، وأنكم تحاربون من أجل مجتمع جديد، يتفق مع ظروف العصر، واحتياجات الدنيا في هذا الزمن الصعب!.

ماتت أمينة السعيد قبل أن تصل إلى سنة 2000 كما تمنت وأرادت.

وليتها عاشت، فقد كانت حياتها خيرًا وبركة على الجميع. لم ينكرها أحد كما توقعت.. بل كان الجميع يحبونها ويتجهون إليها عندما تضيق بهم الحياة.

كانت هي الحكمة الصافية.

وكانت تقول الحق وتثبته بالبرهان والدليل.

ولذلك كان الجميع يتمنون أن تعيش حتى سنة 2000 وما بعد سنة 2000.

ولم يحدث أبدًا أن تمنى أحد الخلاص منها والتحرر من وجودها.. فقد كانت خفيفة رشيقة دقيقة في كل قول وكل تصرف.

ولكن هكذا أرادت أمينة. وهكذا تحقق لها ما تريد بغير رغبة الأبناء والتلاميذ.

أرادت ألا تعيش حتى سنة 2000، فحقق لها الله العلي القدير ما أرادته وماتت في الخامسة والثمانين، وقبل أن ينتهي القرن العشرون ولعلها لو أرادت أن تعيش أكثر من ذلك لعاشت.. لأن إرادة الإنسان الطيب هي من إرادة الله، وقد كانت أمينة السعيد من أطيب الناس على هذه الأرض، وذهبت عن الدنيا، والذين يعرفونها معرفة حقيقية يبكون عليها بدموع صادقة كما لو أنها ماتت في العشرين لا في الخامسة والثمانين.

ليتها عاشت... فقد كانت نورًا.. وكانت من الصادقات النابغات.

وليس حديثنا عنها اليوم من باب الرثاء فقد كانت تكره الدموع، وتكره الضعف في الرجال والنساء.

كانت امرأة قوية عزيزة،. وبصراحة كانت امرأة بألف رجل!

ونترك هذا الحديث الذي يتسم بشيء من«العاطفية» وكانت أمينة السعيد تكره تغلب «العاطفة» على «العقل» لأنها كانت تؤمن أن «العقل» هو سيد الإنسان وسيد الحياة.

فاسمحي لنا ببعض الدموع، يا أمينة السعيد، بعد رحيلك الذي كنا لا نرغب فيه أبدًا، كما كنت تتصورين ثم بعد ذلك نعود إلى التفكير الدقيق الواعي كما كنت تطلبين من الجميع أن يلتزموا بذلك.. ففي العقل نجاة، وفي الاستسلام للعاطفة الغامضة هلاك وضياع.

وأريد أن أتحدث هنا عن الجانب الأدبي في شخصية أمينة السعيد؛ ذلك لأن هذا الجانب هو من أهم جوانب هذه الشخصية الخصبة المتنوعة. من ناحية أخرى، فإن هذا الجانب يشبه الغرفة المغلقة في متحف عظيم من متاحف الفن، فدور أمينة السعيد في الصحافة، ودورها كرائدة متميزة باسلة من رواد تحرير المرأة العربية، ودورها كداعية شديدة الصلابة للتنوير والفكر العصري المتحضر، دون أي مخالفة أو خروج على الشريعة الدينية في أسمى معانيها وأرقى صورها.. هذه الأدوار جميعًا قد شغلت الناس عن أمينة السعيد الأديبة، وأصبحت غرفة «الأدب» في متحفها الجميل قليلة الرواد بالقياس إلى الزحام المتدفق الشديد على الجوانب الأخرى في هذه الشخصية الرائدة الجميلة.

وقد حاولت أن أحصر جهدي في النظر إلى أربعة أعمال أدبية على وجه التحديد قدمتها أمينة السعيد. أما العمل الأول والأهم فهو رواية «الجامحة» وقد كتبتها في الأربعينيات وتم نشرها سنة 1950، أما الثاني فهو مجموعة قصصية بعنوان «الهدف الكبير» وقد صدرت سنة 1958، أما العمل الثالث فهو دراسة عن الشاعر الإنجليزي العالمي «بيرون» وقد صدرت هذه الدراسة سنة 1944، أما الرابع فهو كتاب في أدب الرحلات عنوانه «مشاهدات في الهند» وصدر سنة 1946.

ولكن هذا الحديث عن أدب أمينة السعيد يحتاج إلى مقدمات.

فقبل أن أتحدث بالتفصيل عن هذه الأعمال أو بعضها على الأقل، سوف أحاول بقدر ما أستطيع أن أحدد الملامح العامة للشخصية الأدبية لأمينة السعيد، وأقول الشخصية الأدبية ولا أقول أدب أمينة السعيد؛ لأن هذه الكاتبة لها شخصية تفرض نفسها بقوة على قارئها وعلى كل ما تكتبه من أعمال أدبية، وهذه نقطة جوهرية، فالكاتب قد يكتب أعمالاً كثيرة ناجحة، ولكننا نعجز عن الإحساس بوجود شخصية واحدة قوية تقف وراء هذه الأعمال وتربط بينها، بل قد نحس أحيانًا أن هذا الأديب له في أعماله المختلفة شخصيات متعددة، تتنافر مع بعضها البعض وتتناقض من

عمل إلى آخر. وهذا هو السر في أن بعض الذين يكتبون كتابات كثيرة متعددة قد يعجزون عن.. التأثير في الناس، رغم كثرة الإنتاج وغزارته، وأن بعض الذين ينتجون إنتاجًا أقل بكثير قد يؤثرون على الدنيا والناس ويصبحون من علامات الطريق في الفن والحياة. والفرق هو: وجود الشخصية الأدبية وقوتها عند البعض، وانعدام هذه الشخصية عند الآخرين.

وأمينة السعيد في أدبها هي صاحبة شخصية قوية وآسرة تفرض نفسها فرضا في كل أعمالها، وهذه الشخصية القوية هي العلامة الأولى من علامات النجاح والقدرة على التأثير في الناس.

والشخصية الأدبية القوية تطرح علينا سؤالاً أساسيًا عن العناصر التي تتكون منها مثل هذه الشخصية. والحقيقة أن الشخصية الأدبية مثل الشخصية الإنسانية لا يمكن تشريحها أو تحليلها إلى «فتافيت»، وكل ما يستطيعه التحليل هو أن يساعد على فهم هذه الشخصية، أما الشخصية نفسها بأضوائها وظلالها فسوف تظل شيئًا متكاملاً، وإن لم نستطع تحديده بدقة، وقد عبر شاعر عربي قديم هو «ابن الرومي» عن الحيرة بين الإحساس بالشخصية القوية وصعوبة تحديد عناصر القوة فيها بقوله:

يسـهـل الـقـول إنـهـا أجـمـل الأشـيـاء

طـــرا ويصــــعب الــــتـــحـديــــد

ومع ذلك فسوف نحاول أن نقتحم هذه الصعوبة ونحدد بعض عناصر الشخصية الأدبية لأمينة السعيد.

فقد نشأت أمينة السعيد في بيئة مثقفة متعلمة، وكان والدها طبيبًا ناجحًا ـ كما أشرنا ـ ولد ونشأ في المنصورة، ولكنه عمل لفترة طويلة في أسيوط وكان من الذين شاركوا مشاركة قوية في ثورة 1919، واعتقل خلال الثورة في القاهرة، بينما كانت أسرته تقيم في أسيوط، حيث عانت هذه الأسرة صعوبات كثيرة خلال فترة اعتقاله، وكان بيت الأسرة معقلاً من معاقل الثوار بالمعنى الحرفي للكلمة، وليس بمعناها

الإنشائي، فقد كان الثوار يجتمعون حوله، ويختبئون في «البدروم» الخاص به، وكانت أم أمينة السعيد في غيبة زوجها السجين تدير الأمور بما يحقق مصالح الثوار وأمنهم، فتمدهم بالطعام والمال والمأوى كلما أمكنها ذلك، وكانت تتصرف هذه التصرفات كلها في إطار من المحافظة على سمعتها وسمعة الأسرة في ظل ظروف ذلك العصر «سنة 1919» والتى لم تكن تسمح باختلاط المرأة بالرجال، وسوف نجد لأمينة السعيد تصويرًا دقيقًا وجميلاً لشخصية والدتها «زينب صبور» في قصة لها عنوانها «الثائرة الهادئة» وذلك في مجموعتها القصصية «الهدف الكبير» فأسرة أمينة السعيد إذن هي من الأسر المصرية التي لم تتوقف عند حدود المشاركة العملية في ثورة 1919، ولكنها تثقفت بثقافة هذه الثورة، وأخذت بالمبادئ الإنسانية والحضارية التي قامت من أجلها هذه الثورة، وكان على رأس هذه المبادئ جميعًا؛ تحرير المرأة.. وتعليمها، فقد كان الإنجليز المحتلون لمصر يرفضون إنشاء مدارس ثانوية للبنات، وظل هذا الوضع حتى نجحت الثورة، وتولى سعد زغلول رئاسة الوزارة سنة 1924 وتقرر إنشاء أول مدرسة ثانوية للبنات في مصر سنة 1925.

ولعل خير ما يصور لنا وضع المرأة المصرية قبل سنة 1919 ما جاء في مذكرات سلامة موسى، حيث يقول في هذه المذكرات الرائعة وعنوانها «تربية سلامة موسى» ما يلي:

«كان الإنجليز يحاربون شيئين في الأمة لا ثالث لهما، وكانوا يكفلون بقاءنا في ظلام الجهل وذلة الفقر بهذين الشيئين وهما: التعليم والصناعة ونجحوا في ذلك نجاحًا عظيمًا؛ فلم يسمحوا طوال إشرافهم على وزارة المعارف بإنشاء مدرسة ثانوية للبنات في أي مدينة من مدن القطر. وكانوا يعلموننا أن بلادنا زراعية لا تلائمها الصناعة، كَأَنَّ القدر قد قضى علينا بالفقر الأبدي، وكانوا يصرون ـ بسوء نية ـ على المحافظة على تقاليدنا «الخاطئة» فكانت المدرسة السنية الابتدائية في القاهرة، وكانت ناظرتها إنجليزية، تصر على اتخاذ «البرقع» للتلميذات وهن في سن العاشرة أو الثانية عشرة من العمر. وكان معلم اللغة العربية يُفْصَلُ من وزارة المعارف إذا نزع عمامته وقفطانه ولبس

البنطلون والچاكت، وتقدمت الأنسة «نبوية موسى» لامتحان الشهادة الثانوية سنة 1907 من بيتها، فرفض «دنلوب» المستشار الإنجليزي قبولها في الامتحان، ولكنها استمرت في الكفاح، وأحدثت ضجة في الجرائد، وتقدمت في السنة التالية، فقبلت ونجحت ولكن الإنجليز تنبهوا فلم تفز فتاة مصرية بالشهادة الثانوية منذ سنة 1908 إلى سنة 1929 حين تقدمت إليها الفتيات اللاتي أنشأت لهن وزارة المعارف مدرسة ثانوية في سنة 1925؛ أي بعد إعلان الاستقلال بسنتين.

هذه صورة حية لوضع المرأة في الجيل السابق على جيل ثورة 1919، والحقيقة أننا مطالبون الآن بتصحيح فكرة في أذهاننا تقول إن ثورة 1919 كانت مجرد ثورة سياسية تهدف إلى تحقيق الاستقلال الوطني والتحرر من الاحتلال الإنجليزي فقط، فالواقع أنها كانت ثورة فكرية وحضارية شاملة وكانت تهدف إلى تحرير الأمة كلها ومن بينها المرأة المصرية من كل القيود التي تعوقها وتقف في طريقها.

من أسرة تثقفت بأفكار ثورة 1919 خرجت أمينة السعيد، وشجعها والدها على إتمام تعليمها، فدخلت الجامعة وتخرجت في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب، ويقول الدكتور لويس في مذكراته الجميلة التي أسماها «أوراق العمر»:

«كان معي في السنة الأولى أمينة السعيد التي كانت محور اهتمام الجميع؛ أولاً لأنها كانت فيما أذكر الطالبة الوحيدة في قسم اللغة الإنجليزية، وثانيًا بسبب جمالها الطاغي.

فأمينة السعيد إذن لم تلق مقاومة في أسرتها لرغبتها في التعليم، بل وجدت على العكس تشجيعًا من الأسرة، ويروي الأستاذ مصطفى أمين في كتابه «شخصيات لا تنسى» هذا الموقف الذى يلقي أضواء أكثر وضوحًا على البيئة الأولى التي تربت فيها أمينة السعيد فيقول:

«سمع عميد كلية الآداب الدكتور منصور فهمي أن الطالبة أمينة السعيد تلعب التنس في ملاعب الجامعة، وقد ارتدت فستانًا يغطي جسمها وذراعيها وساقيها إلى ما تحت الركبة، فأرسل العميد إلى أمينة السعيد سكرتير الكلية ليقول لها: إن العميد

يقول «بلاش لعب التنس» وسألته الطالبة: لماذا؟ قال السكرتير: لا يوجد بنات يلعبن التنس. وذهبت أمينة السعيد إلى بيتها غاضبة حانقة، وسألها أبوها: ماذا جرى؟ قالت: العميد يهددني! وروت له ما حدث، فأجابها: «أذكر أنني دفعت لك رسوم الجامعة، ورسوم الألعاب الرياضية، وما دامت الكلية قبلت هذه الرسوم فمن حقك أن تمارسي كل رياضة، اذهبي والعبي ولا يهمك. وسأقف إلى جانبك مادمت لا ترتكبين خطأ، وإذا حدث وفصلوك من الكلية ظلما فسوف أرسلك إلى إنجلترا لإتمام دراستك». واستمرت أمينة السعيد تلعب التنس في ملاعب الجامعة متحدية عميد كلية الآداب، ووقف الطلبة بجوارها يؤيدونها ضد العميد».

ويشير مصطفى أمين بعد ذلك إلى أن أمينة السعيد عملت صحفية في آخر ساعة وهي طالبة في الجامعة، وكانت بذلك ـ كما يقول مصطفى أمين ـ أول فتاة تعمل بالصحافة «فلم يكن لدينا يومئذ صحفية واحدة، كان لدينا كاتبات مقالات مثل «مي زيادة» و«ملك حفني ناصف» أو «باحثة البادية» كما كانت تسمي نفسها «ومنيرة ثابت».

وكان لدينا صاحبات صحف مثل «بتسي تقلا» أرملة «سليم تقلا باشا» صاحب «الأهرام» و«روزاليوسف» وكل هؤلاء كن يدرن الصحف ولا يمارسن الأعمال الصحفية، وشعرت ـ والكلام مازال لمصطفى أمين ـ من نشاط الطالبة أمينة السعيد في الجامعة، واتصالاتها الواسعة بجميع الأنشطة الجامعية وقوة شخصيتها وحدة ذكائها وخفة دمها ودقة ملاحظاتها أنها تصلح أن تكون أول صحفية في مصر تبحث عن الخبر، وتكتب التحقيق الصحفي، وتحترف الصحافة بمعنى الكلمة».

وهكذا كان..... فأصبحت أمينة السعيد أول فتاة تعمل بالصحافة وهي طالبة بالجامعة ثم بعد تخرجها، حيث استمرت تمارس هذه المهنة أو هذه الرسالة حتى آخر لحظة في حياتها.

ونتوقف هنا لنتساءل ما هي علاقة ذلك كله بعنوان المقال وهو «تلميذة طه حسين».

أين أمينة السعيد من طه حسين مع أن الثابت من تاريخها الواقعي أنها لم تكن على علاقة شخصية وثيقة بطه حسين مثل علاقته بتلميذته سهير القلماوى على سبيل المثال؟

بل لعل المعروف أنه كان هناك بعض «النفور» وبعض «الاختلاف» بين أمينة السعيد وطه حسين في بعض المواقف والظروف. ومع ذلك كله فقد كانت أمينة السعيد تلميذة لطه حسين... وثمرة من ثمرات جهاده وعمله.

فطه حسين هو الذي فتح أمام المرأة باب دخول الجامعة، وهذا هو الحق الذي استفادت منه أمينة السعيد.

وقد استند طه حسين على منطق أستاذه لطفي السيد أول مدير لجامعة القاهرة «سنة 1925» وكان اسمها في ذلك الوقت جامعة فؤاد الأول نسبة إلى الملك فؤاد.

فعندما ثارت ثورة الكثيرين في مصر على دخول المرأة إلى الجامعة واختلاطها بالشباب، قال لطفي السيد بمنطقه القوي الثابت المؤمن أشد الإيمان بضرورة النهوض والتطور:

إن القانون أمامي يقول: إن كل حاصل على الثانوية العامة يحق له دخول الجامعة. ولم يقل القانون إن الذين يحق لهم دخول الجامعة هم «الذكور» فقط من الحاصلين على الثانوية العامة.

وأنا ـ والكلام للطفي السيد ـ أنفذ القانون.

وهكذا أخرس لطفي السيد ـ بمنطقه الهادئ الرصين ـ كل المعارضين لتعليم المرأة في الجامعة. وعلى هذا الأساس القانوني اعتمد طه حسين، فهو الذي خاض المعركة الواقعية وسمح للمرأة بدخول كلية الآداب عندما كان عميدًا لها سنة 1930.

وهكذا، فـ«طه حسين» هو الذي فتح الباب لأمينة السعيد، فهي تلميذته بهذا المعنى وثمرة من ثمرات كفاحه. ولكن طه حسين كان أكثر من ذلك هو: الحرية العقلية، وهو الشجاعة والجرأة في رفض التخلف والجمود، وهو النظر إلى المستقبل بتفاؤل، وهو الجهاد في الحياة بصبر ورفض كامل للتخاذل، وقوة إرادة واحتمال للشدائد، وعمل مستمر من أجل تنمية العقل والضمير والقدرة على مساعدة المجتمع لكي ينهض ويتقدم.

وأمينة السعيد تلميذة ـ بكل معنى الكلمة ـ لطه حسين في هذه الصفات جميعًا.

عاشقة الكروان

نعود إلى أمينة السعيد التي فارقتنا يوم الإثنين 14 أغسطس سنة 1995، وكانت في الخامسة والثمانين من عمرها، وظلت مواظبة على الحضور إلى مكتبها بمجلة «المصور» في التاسعة من صباح كل يوم حتى اضطرت إلى دخول المستشفى قبل وفاتها بشهر واحد، وضربت بذلك مثالاً بديعًا للنظام والدقة، ولم يكن ينافسها في ذلك سوى فكري أباظة، الذى كان بعد أن تجاوز الثمانين يصل إلى مكتبه قبل أمينة السعيد بنصف ساعة؛ أي في الثامنة والنصف كل يوم وبانتظام لا يتعرض أبدًا للخطأ أو التأخير.

هذه الفضائل هي التي أعطت للجيل السابق قوته وقدرته على الاستمرار والعطاء المثمر الغزير، وهذه الفضائل البسيطة الكريمة هي التي تجعلنا نقول عن هذا الجيل دون أي مبالغة: إنه جيل من العمالقة، أقام حياته على النظام والدقة، فبارك الله له في هذه الحياة، وأصبحت هذه الحياة خيرًا لأصحابها وللناس والمجتمع كله.

وهنا أجدني مندفعًا إلى استطراد بسيط أروي فيه واقعة لي مع نجيب محفوظ وهو إلى جانب عبقريته الأدبية من كبار المؤمنين بالنظام والدقة وعدم الاستسلام للظروف مهما كانت صعبة وقاسية.

ذهبت إليه في يوم من الأيام وأنا ممتلئ بالاضطراب والقلق والدنيا أمامي ضباب في ضباب، فلم أكن أرى شيئًا، ولم أعرف كيف أواصل المسير، ولا أجد أمامي ضوءًا يهديني إلى الطريق المستقيم.

قال لي نجيب محفوظ ــ وأنا أذكر كلامه جيدًا وربما بالحرف الواحد ــ: «أنا لن أحدثك عن نفسك، فيجب أن تكون أنت أدرى بها مني ولكني سأحدثك عن خلاصة تجربتي في الحياة، فأنا لم تكن ظروفي سهلة أو ميسرة كما تتصور، فقد كنتُ موظفًا أذهب إلى عملي في المواعيد، وكان دخلي كله يعتمد على راتبي ولا شيء سواه، ولكنني مع ذلك كتبت بانتظام ودقة وأقمت حياتي الأدبية على ما يمكن أن أسميه باسم «نشارة الحياة» نصف ساعة من هنا ونصف ساعة من هناك أجمعهما على بعضهما البعض، وألتقطهما من زحام الدنيا لأقيم حياتي الأدبية وأستمر فيها، هكذا جمعت «نشارة الحياة» المتاحة لي وصنعت منها كل ما أريد».

وقد أطربتني عبارة «نشارة الحياة» هذه طربًا شديدًا، وظلت هذه العبارة تحركني وتقودني كلما تعرضت لمأزق من المآزق، وكأنها بطارية مشحونة تساعد السيارة على الحركة والقدرة على الانطلاق.

والنشارة ــ كما هو معروف لنا جميعًا ــ هي ما يتبقى من الخشب بعد قطعه وإعداده للاستخدام، وفي العادة تتحول هذه النشارة إلى سلة المهملات، ولكن نجيب محفوظ لم يهمل هذه «النشارة» بل جمعها في صبر ودَأَب، وجعل منها أدبًا عظيمًا وإنسانًا لا يقل عن الأديب في عظمته ومستواه.

و«نشارة الحياة» هي الوقت الضائع الذي لا تهتم به، والفضائل الصغيرة قد لا تلفت الأنظار، ولكن هذه «النشارة» يمكن أن تصنع شيئا جميلاً لو أننا التفتنا إليها واستفدنا منها، وصبرنا على تحويلها إلى قوة تساعدنا على تحقيق ما نحلم به من أهداف.

وكثيرون من عمالقة الجيل الماضي، ومنهم أمينة السعيد، كانوا يعرفون قيمة هذه «النشارة» ويستفيدون منها أكبر الفائدة، وأعود إلى أمينة السعيد، موضوعنا هنا، لأقول إنها خاضت تجارب كثيرة ساهمت في تحديد شخصيتها، ورسمت الملامح القوية لهذه الشخصية.

فأمينة السعيد كانت شخصية «تجديدية» تحمل في عقلها وقلبها صورة مستقبل أفضل لأمتها وللمرأة المصرية، وليست شخصية «تقليدية» تستسلم للواقع المتخلف وترضى به وتدافع عنه.

وهي شخصية «إيجابية» وليست شخصية سلبية، وهنا يقفز إلى ذهني بيت من الشعر العربي القديم يقول فيه الشاعر:

إذا أنت لـــم تـــنــــفـــع فضـــر فــإنـــمـــا

يُـــرجّـــى الـــفـــتـــى كـــيـــمـــا يضـــر ويـــنـــفـــع

والشاعر هنا يندد بالأشخاص السلبيين الذين لا ينفعون ولا يضرون، ويرى أن الشخصية الإيجابية الفعالة، حتى لو كانت ضارة، أكثر فائدة للإنسانية من الشخصية الخاملة السلبية التي لا تنفع ولا تضر.

والشاعر ـ طبعًا ـ لا يحرض على الضرر ولكنه يحرص على الحركة والإيجابية ويرفض الاستسلام والوقوف إلى جانب الحائط والتفرج على الحياة بحجة الخوف من الوقوع في الخطأ.

يا أخي تحرك حتى ولو أخطأت، فالخطأ يمكن إصلاحه، والضرر يمكن دفعه ومواجهته، ولكن الخمول والسكون لا صلاح لهما أبدًا.

وقد كانت أمينة السعيد من هذا النوع الإيجابي الفعال، وكانت على الدوام مستعدة للقتال الفكري من أجل الدفاع عما تؤمن به وليست من النوع الذي ينسحب من الميدان إذا وجد أن أفكاره بحاجة إلى التعب والجهاد في وجه الصعوبات والعقبات.

ولكن أمينة السعيد ـ وهذا درس ينبغي أن نتعلمه ـ لم «تتهور» أبدًا، ولعل ذلك هو سبب نجاتها من العواصف الكثيرة التي تعرضت لها مصر في هذا العصر، ودفع فيها الكثيرون من أصحاب الفكر والرأي ثمنًا غاليًا.

لقد كان تعريف الشجاعة عند أمينة السعيد هو نفسه تعريف الشجاعة عند «أرسطو». فالشجاعة هي الوسط الذهبي بين رذيلتين هما: الجبن والتهور.

وكانت أمينة السعيد شجاعة بهذا المعنى؛ أي أنها لم تكن جبانة ولا متهورة.

وكانت أمينة السعيد فوق ذلك كله صاحبة وعي وطني ليس فيه أي درجة من درجات الافتعال والتشنج، وهذا الوعي يعني أن تحرير المرأة من قيود التخلف مرتبط أشد الارتباط بتحرير الوطن نفسه، فلا يمكن أن تحصل المرأة على حريتها في وطن مستعبد وغير حر. ورحم الله قاسم أمين «1865 ـ 1908» الذي كان يقول ما معناه: «إن المرأة المستعبدة في البيت» معناها رجل مستعبد وغير حر في المجتمع».

وقد امتلأت أمينة السعيد ـ في عقلها وقلبها ـ بهذه المعاني الصحيحة من خلال ما يمكن أن نسميه «ثقافة ثورة 1919» وهي الثقافة الوطنية الأصيلة التي ظلت تسيطر على عقل مصر حتى قامت ثورة 1952 فجاءت بأفكار جديدة.

والرؤية الوطنية عند أمينة السعيد ليست رؤية «إقليمية» محصورة في الواقع المصري وحده، بل هي رؤية تمتد إلى إطار عربي واسع، والمصري الحقيقي، مسلمًا أو مسيحيًّا، هو عربي أصيل في نظرته إلى الحياة، وما زلت أذكر تلك العبارة الرائعة لمفكر من دمشق يقول فيها: إذا تعربت مصر، تمصرت العروبة. ومعنى هذه العبارة الجبارة أن مصر هي قلب العرب، وهي الرائدة والقائدة، وإذا أصبحت مصر عربية، أصبح العرب مصريين؛ لأن العرب جميعًا يتأثرون بمصر، في ذوقها وفنها وأفكارها السياسية إلى أبعد الحدود.

وكانت أمينة السعيد تدرك هذا المعنى وتدافع عنه، وكانت تحس دائمًا أن وحدة العرب في صورة تعاون أو تفاهم أو اتفاقيات من أي نوع هي ضرورة لهذه المنطقة من مناطق العالم ولا بديل لذلك.

تقول أمينة السعيد في كتابها «مشاهدات في الهند» وهو من أجمل الكتب في مجال ما نسميه باسم «أدب الرحلات»:

«حلقت بنا الطائرة فوق إحدى الإمارات العربية، ودرنا بها مرات قبل الهبوط فرأيت جزرًا ثلاثًا هي كل أرض ذلك الإقليم ترى أي مستقبل ينتظر هذه الدويلات الصغيرة، وأي أمل لنا في التقدم والارتقاء، وبلادنا مقسمة على هذا الحال إلى فتات ينتثر هنا وهناك؟ لقد علمتنا الحروب المتتالية أن الشعوب الصغيرة لا يمكن أن تقف أمام طغيان المدنيات الحديثة، وأن القوة هي في العدة والتعداد، وخليق بنا أن نتعظ بما تعلمناه، فنجمع شمل هذا الفتات المنثور، حتى نصبح جبهة قوية ثابتة، لا شعوبًا هزيلة تعدادها ربع مليون».

وأريد أن أخرج من هذا كله بأن الخلفية الأساسية لشخصية أمينة السعيد الأدبية والاجتماعية هي خلفية وطنية عربية إسلامية مستنيرة، وهذه الخلفية السليمة قد أدت دورًا هامًا في تكوين شخصية أمينة السعيد القوية.

ومن أكبر الأوهام أن نتصور إمكانية ظهور شخصية أدبية أو فكرية مؤثرة دون أن تكون لها مثل هذه الخلفية الوطنية القوية، فالذين لا يؤمنون بأوطانهم، ولا يحبون أهلهم، لا يمكن أن يكون فيهم خير من أي نوع.

على أن هذه الخلفية الوطنية المستنيرة وحدها، كان يمكن أن تجعل من أمينة السعيد امتدادًا طيبًا وعصريًا لزعيمات النهضة النسائية في مصر والوطن العربي، وعلى رأس هؤلاء الزعيمات هدى شعراوي «1879 ــ 1947» بنت محمد سلطان باشا، وزوجة على شعراوي باشا، والتي تعتبر في مجال النهضة النسائية أستاذة لأمينة السعيد، وكانت أمينة السعيد ملتصقة بها، قريبة منها، وملازمة لها، حتى لقد انتشرت شائعات كثيرة في الأربعينيات تقول إن أمينة السعيد كانت تكتب كل خطب هدى شعرواي القوية الجميلة، وقد نفت أمينة السعيد ذلك نفيًا قاطعًا مسئولاً عندما كتبت في مقال لها تقول:

«إنني لم أكتب شيئًا لهدى شعراوي، إذ كانت هدى أعلم مني وأكثر خبرة بمئات المرات، وأنا التي كنت أتعلم منها، والسبب الوحيد الذي كان يدعو هدى شعراوي إلى إنابتي عنها في قراءة خطبها هو قوة صوتي بحكم صغر سني».

وما أجمل هذا الكلام في الاعتراف بالفضل، وصيانة حقوق الناس من الالتباس والتشويش!

أقول: لقد كان من الممكن أن تكون أمينة السعيد مجرد رائدة في مجال النهضة النسائية بعد جيل هدى شعراوي، ولكنها أصبحت أديبة وكاتبة وصحفية؛ أي أنها اتخذت من الكتابة وسيلة أساسية للتعبير عن رسالتها في الدعوة إلى النهضة والتقدم.

ولا يكفي أن يكون الإنسان صاحب رسالة حتى يكون كاتبًا، فالكتابة فن له وسائله الخاصة وأدواته المستقلة، ومن الخطر أحيانًا أن تطغى الرسالة على الكتابة، فتصبح الكتابة وعظًا وخطابة، وهذا هو ما انتبهت إليه أمينة السعيد منذ البداية فاهتمت بتكوينها الثقافي اهتمامًا بالغ الدقة، وساعدتها على ذلك ظروف عائلية ومادية ميسرة فقد كان أبوها «الدكتور أحمد السعيد بك» طبيبًا ناجحًا وميسورًا، وكان زوجها الدكتور عبد الله زين العابدين الأستاذ بكلية الزراعة من الأغنياء هو الآخر، وكان يملك هو وأسرته 150 فدانًا لم تخضع للإصلاح الزراعي، ولو أنني حاولت أن أتحدث بالتفصيل عن التكوين الثقافي لأمينة السعيد لاقتضى مني ذلك أبحاثًا طويلة جدًّا ولذلك سوف أكتفي بإشارات رئيسية حول هذا التكوين الثقافي الأصيل.

لقد تعمقت أمينة السعيد في الأدب الإنجليزي واللغة الإنجليزية من خلال دراستها في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب ولكنها لم تتوقف عند حدود الدراسة الجامعية، بل توسعت في مطالعاتها وعرفت الكثير من الآداب الإنسانية الكبرى من خلال معرفتها الدقيقة باللغة الإنجليزية وقد قضت سنتين بعد تخرجها في الجامعة في القراءة والدراسة التفصيلية المتقنة لموسوعة إنجليزية من 28 مجلدًا عنوانها «آداب

العالم» وكان من بينها أجزاء عن الأدب الفرعوني والأدب الفارسي والأدب الهندي فضلاً عن الآداب الإنجليزية والألمانية والفرنسية والأمريكية اللاتينية؛ أي التي أبدعتها شعوب أمريكا اللاتينية.

وقد كانت ثقافة أمينة السعيد الأجنبية كفيلة بأن تغريها بإهمال الثقافة العربية واللغة العربية، وكان هذا من ناحية أخرى كفيلاً بأن يضعف إمكاناتها كأديبة وكاتبة عربية، كما حدث للكثيرين ممن أتقنوا اللغات الأجنبية وأهملوا اللغة العربية مثل «أندريه شديد» وچورچ حنين، وغيرهما من المصريين الذين أصبحوا كتابًا فرنسيين مشهورين، وانقطعوا عن مصر إلا عن طريق الترجمة إلى العربية مثلهم في ذلك مثل الأدباء الأوروبيين.

ولكن أمينة السعيد تنبهت للأمر، اهتمت بثقافتها العربية اهتمامًا واسعًا، كما يتضح لنا من أسلوبها العربي الذى يتمتع بالوضوح والاستقامة والسلاسة والعذوبة، فليس في أسلوبها أية لكنة من تلك اللكنات التي تواجهنا عند الذين أهملوا لغتهم العربية القومية التي بها يعبرون لحساب ثقافتهم الأجنبية وأستطيع أن أقول باطمئنان أدبي كامل إن أسلوب أمينة السعيد هو من أصح وأقوى وأجمل الأساليب العربية المعاصرة بين الرجال والنساء على السواء، وهذا معنى هام ينفعنا وينبغي أن نستوعبه في شخصية هذه الكاتبة الرائدة، فالكثيرون يهملون اللغة العربية إهمالاً مشينًا، ويظنون ـ وهم مخطئون ـ أن من علامات التفوق الثقافي الأدبي أن تكون اللغة العربية ضعيفة فيما يكتبون حتى يشعر القارئون أن صاحب العربية الضعيفة هو مثقف كبير يمتلئ رأسه بالكثير من ألوان الثقافات العالمية المختلفة. ولا يتوقف عند حدود الثقافة العربية المتخلفة.

هنا نقول: عيب... لغتنا القومية هي عِرْضُنا وكرامتنا فاحرصوا عليها ولا تفرطوا في فهمها ومعرفتها وإتقانها.

وهكذا نجد أمامنا شخصية أمينة السعيد وقد توافرت لها قوة الشخصية واتساع التجربة الإنسانية والإيمان برؤية وطنية وحضارية، والحرص على ثقافتها العربية

والأجنبية معًا في توازن ودقة، مع ما توافر لها من الموهبة والاستعداد الفني والفكري، فكل الوسائل لا تجدي ولا تنفع إذا لم تكن هناك موهبة ـ من الله فطرية طبيعية ـ كامنة في الشخصية الأساسية للإنسان.

وأظن أن من السهل الآن، بعد كل هذه المقدمات أن أقف أمام «أدب» أمينة السعيد وأقدم رؤية إجمالية له.

فماذا نجد في هذا الأدب وكيف يمكن أن نتعامل معه؟

أن أهم ما يلفت النظر في هذا الأدب هو أنه «أدب موضوعي» إذا صح التعبير، فأدب أمينة السعيد متحرر تمامًا من ذلك العيب الذي شاع في جانب غير قليل من ذلك الأدب الذى نسميه ـ خطأ أو صوابًا ـ باسم الأدب النسائي العربي الحديث، وهذا العيب هو «الذاتية المسرفة» وأعني بذلك أن تتحدث الأديبة عن تجاربها الشخصية، وتدور حول وجهة نظرها الخاصة، وما تشعر به من أحساسيس تجاه الأشخاص والأحداث، وهذه «الذاتية المسرفة» تفسد الأدب وتضعفه؛ لأنها تؤدي بالأديب الفنان إلى رؤية ضيقة محدودة، وتجعل منه أسيرًا للدوران في حلقة مفرغة هي نفسه ومشاعره ومشاكله الخاصة به، ولا تتيح له الفهم الصحيح والرؤية الدقيقة للعالم الخارجي وللناس الذين يعيشون حوله.

وهذه «الموضوعية» في أدب أمينة السعيد ترفع هذا الأدب إلى مكانة عالية، وتتيح له أن يعيش في هذا الجيل وفي غيره من الأجيال محتفظًا بنضارته وإشراقه ونماذجه الإنسانية الصادقة، وليس معنى «الموضوعية» في الأدب ألا يستفيد الفنان من تجاربه الخاصة ومشاعره الشخصية، فلابد أن تدخل هذه التجارب والمشاعر في تكوين العمل الفني، ولكن الفنان القوي لا يستسلم لذلك. وإنما يسعى لتقديم صياغة فنية دقيقة للواقع على حقيقته وليس على هواه الخاص.

وأجمل ما قدمته أمينة السعيد إلى الأدب العربي المعاصر هو روايتها «الجامحة» وشخصية «أميرة» بطلة رواية «الجامحة» لا تشبه أمينة السعيد في شيء، وإذا كان في

بعض فصول الرواية ما يوحي لنا بأن أمينة السعيد قد استفادت من تجاربها في تصوير بعض الجزئيات، وخاصة فيما يتصل بحياة مدارس البنات، وعلاقة الفتيات مع بعضهن البعض، في سن المراهقة، فذلك هو الحد الجيد من... التجارب الشخصية الذي لا يفسد العمل الفني، فشخصية «أميرة» في رواية «الجامحة» هي شخصية إنسانية مرسومة بدقة ومهارة وموضوعية وهي فتاة مزقها الصراع بين أحلامها وواقعها وعقدتها التي تربت عليها وهي عقدة السيادة والسيطرة على الآخرين، وفي هذه الرواية الجميلة تخرج بعدة «أنغام» تساعدنا على فهم الحياة وتفسيرها ولا أريد أن أسرف في تحديد هذه الأنغام حتى لا يبدو أنني أخرج من الرواية الجميلة الحية بمجموعة من المواعظ والحكم وسأتوقف عند نغمة رئيسية في رواية «الجامحة» للدلالة على موضوعيتها وبنائها الفني المحكم وإنسانيتها وبعدها عن المشاعر الشخصية المسرفة التي تقتل الفن وتقضي عليه فرواية «الجامحة» تقول لنا بوضوح وبساطة إن القوة عندما تتجاوز حدودها تؤدي إلى «الوحدة» وعدم القدرة على التعامل مع الآخرين، وهذا هو ما حدث لأميرة بطلة «الجامحة» والتي تربت على أن تكون قوية، بل وأن تكون أقوى من الجميع، وحرصت على أن تكون كذلك بصورة مستمرة، وعندما حققت هدفها اكتشفت أن «القوة المطلقة» معناها «الوحدة المطلقة» و«الوحدة المطلقة» هي العذاب والضياع وخلو الحياة من الحنان، ومن أي معنى جميل آخر.

ولذلك فالقوة الصحيحة هي التي يحسن الإنسان استخدامها في موضوعها الصحيح، ولا ينحرف بها حتى تصبح هدفًا في ذاتها، كما حدث مع «أميرة» في رواية «الجامحة» فخسرت في حبها وخسرت في زواجها، وانتهى الأمر بأن تدمر هذه القوة كل شيء في طريقها، وأصبحت «أميرة» بلا حبيب ولا صديق ولا زوج، ولا حتى «عصفور» أو «كلب» يشاركها في وحدتها القاتلة. القوة ينبغي استخدامها بحكمة وإلا دمرت صاحبها وقضت عليه.

وفي بعض صفحات رواية «الجامحة» لأمينة السعيد شعرت أن الكاتبة الأديبة متأثرة بأسلوب طه حسين الذي يعتمد على نوع من المترادفات والتكرار والغناء وهذه

فقرة تقول فيها أمينة السعيد عن «أميرة» بطلة الجامحة: «لم يتغير إحساسها نحو الغسق بتغيير أطوار حياتها، فكما كانت في طفولتها تكرهه، وتخشاه، وتجد في عتمته الحائرة بين النور والظلام نذيرًا بحيرة قلبها بين السعادة والشقاء، ظل هذا الشعور يطاردها كل مساء، فيتملكها بأن الغسق «وهو أول الليل» هو محنة حياتها وعقدة نفسها، فإذا انقضى وحل الظلام زال تطيرها وعاودها الهدوء والسلام».

في هذه الفقرة نجد أسلوب أمينة السعيد قد «تطحسن» أي أصبح شبيهًا تمامًا بأسلوب طه حسين، فهنا «مترادفات» مثل «تكرهه وتخشاه» و«الهدوء والسلام» ونجد «متقابلات» مثل «السعادة والشقاء» و«النور والظلام» والفقرة عمومًا متأثرة بأسلوب طه حسين، وقد أشفقت وأنا أقرأ الصفحات الأولى من رواية «الجامحة» أن تستمر الرواية كلها على هذا النمط الأسلوبي، فيصبح طه حسين مختفيًا بين سطور الرواية حتى النهاية، ولكن الحقيقة أن أمينة السعيد لم تكد تنتهي من الصفحات الأولى حتى انطلقت تعبر عن الأحداث والشخصيات بأسلوبها الخاص المتميز الذي يعتمد على التدفق السريع، والجملة القصيرة، والبعد عن أي بهرجة أو تزويق أو محسنات.

وهكذا سيطرت أمينة السعيد على أسلوبها في معظم أجزاء الرواية الجميلة، وإن كان يبدو لي أنها بدأت في كتابتها مباشرة بعد خروجها من قراءة عمل من أعمال طه حسين المليئة بالموسيقى والسحر.

وهناك أثر مهم آخر من آثار طه حسين في رواية «الجامحة» هذا الأثر هو تكرار صورة «الكروان» وتكرار الاستمتاع بصوته في الرواية، ومن المعروف أن طه حسين له رواية جميلة ومشهورة هي «دعاء الكروان»، على أن طه حسين لم يكن أول من التفت إلى شخصية «الكروان» وجمال صوته في البيئة المصرية فقد سبقه إلى ذلك «العقاد» الذي أصدر في الثلاثينيات، أي منذ أكثر من ستين سنة، ديوانًا شعريًا عنوانه «هدية الكروان» وقال العقاد في مقدمة ديوانه: «من العجيب أنك لا تقرأ صدى للكروان فيما ينظم الشعراء المصريون على كثرة ما نسمع الكروان في أجوائنا المصرية من شمال

وجنوب، وأعجب منه أنك لا تقرأ فيما ينظمون إلا مناجاة البلابل وأشباهها، على قلة ما نسمع هذه الطيور في الأجواء المصرية» وقد كتب طه حسين بعد ذلك قصته «دعاء الكروان» فأهداها للعقاد صاحب الفضل في اكتشاف «الكروان» والاعتراف بجنسيته المصرية، وذلك بدلا من التقليد و.... والترديد للآداب الأجنبية، والتغني بالبلبل الذي لا نسمعه في مصر ولا نراه إلا في «حديقة الحيوان» بينما يملأ صوت «الكروان» سماءنا في كل مكان وخاصة في الصيف والخريف، فأمينة السعيد عاشقة للكروان، وهو موجود في روايتها الجامحة، كما هو موجود في رواية «دعاء الكروان» لطه حسين وفي ديوان «هدية الكروان» للعقاد، مما يكشف عن مدى ارتباط أمينة السعيد بالبيئة الثقافية الواعية اليقظة ففي فترة كتابتها لرواية «الجامحة» وهي فترة الثلاثينيات والأربعينيات وشخصية «أميرة» في رواية «الجامحة» هي نموذج حي للشخصية النسائية في كثير من قصص أمينة السعيد الأخرى، وهذه الشخصية النسائية عند أمينة السعيد هي شخصية قوية فيها قدر من التمرد على ظروفها والرغبة في تغييرها، وأمينة السعيد تصور في أدبها ما تحمله مثل هذه الشخصيات النسائية من نشوة وما تتعرض له من أخطار في نفس الوقت، فكأنها تريد من خلال فنها أن تقول لنا: إن للقوة عند المرأة خطًا دقيقًا أحمر، إذا تعدته المرأة فقدت السعادة وأضاعت فرصتها في الحرية والنجاح.

والتحية لروح أمينة السعيد، عاشقة الحرية، وعاشقة الكروان، والتي ترفرف بجناحها علينا، فنشعر أنها مازالت معنا، كما كانت معنا قبل الرحيل.



ضربوني في أمريكا!

من أشهر الكتب التي ظهرت في القرن العشرين كتاب اسمه «الإنسان ذلك المجهول» ومؤلف هذا الكتاب هو الطبيب الفرنسي المعروف «ألكسيس كارِيل»، وقد ولد كاريل سنة 1873 وتوفي سنة 1944، وعمل في أمريكا أكثر من عشرين سنة، ثم عاد إلى بلاده «فرنسا»، ونال جائزة نوبل سنة 1912، وذلك عن أبحاثه العديدة والدقيقة التي قدمها حول ما أسماه باسم «القلب الآلي»، وكان من رأيه أن مثل هذا القلب الصناعي يمكن أن يمد جسم الإنسان بالحياة لمدة طويلة بعد انتزاع القلب الحقيقي من صدر الإنسان أو بعد توقفه عن العمل.

ولا شك أن أبحاث «كاريل» عن «القلب الآلي» قد أفادت الإنسانية فائدة كبرى. انعكست بعد وفاة «كاريل» في عمليات جراحة القلب التي انتشرت في أواخر القرن العشرين وحققت نجاحًا مدهشًا، وكانت المقدمة لذلك النجاح هي أفكار «كاريل»... وهنا أتوقف عن الحديث في هذه النقطة؛ لأنني لا أفهم في علوم الطب أكثر مما يفهمه أديبنا العربي الكبير الظريف «إبراهيم عبد القادر المازني» في علم «النحو» وكان المازني يقول عن نفسه:

ـ أنا حمار في النحو!

المهم أن «كاريل» قد نال عن أبحاثه العلمية جائزة نوبل سنة 1912 ـ كما أشرنا منذ قليل ـ أما شهرته العالمية الواسعة بين جماهير القراء في شتى أنحاء العالم فقد حصل

عليها بفضل كتابه الجميل الفريد الذي أسماه باسم «الإنسان ذلك المجهول»، وخلاصة هذا الكتاب الرائع يحددها مؤلفه في الصفحة الأخيرة منه بقوله: «لقد حان اليوم الذي نبدأ فيه العمل لتجديد أنفسنا، ولكننا لا ينبغي أن نضع برنامجًا لذلك، فالبرنامج قد يخنق الحقائق الحية ويخفيها خلف درع صلبة، إن مثل هذا البرنامج سوف يمنع انطلاق طبيعتنا الفطرية المجهولة في داخلنا، وسوف يخنق المستقبل الحر الكامن في عقولنا. يجب أن ننهض ونمضي يجب أن نحرر أنفسنا من «التكنولوچيا» العمياء، ونفهم بوضوح أن الطبيعة الإنسانية معقدة وصعبة...».

هذا هو بعض كلام «كاريل».

وهو كلام جميل؛ لأنه ينبهنا إلى أن الإنسان أكبر من «التكنولوچيا» الحديثة المذهلة، وأن الإنسان يجب أن يحافظ على موقعه الذي وضعه الله فيه، فالإنسان هو سيد «التكنولوچيا» وخالقها، وليس عبدًا لها ولا أسيرًا في قفصها الحديدي».

وبالمناسبة لابد أن أقول إن كتاب «الإنسان ذلك المجهول» مترجم إلى العربية ترجمة ممتازة بقلم الأستاذ شفيق أسعد فريد، حياه الله أينما كان، وأنا لا أعرف عنه شيئًا غير هذه الترجمة الرائعة، ولعله يكون والد صديقنا الباحث الأدبي الأصيل الدكتور ماهر شفيق فريد الأستاذ بجامعة القاهرة.

على أننى لا أريد أن أتحدث الآن عن «كاريل» وكتابه «الإنسان ذلك المجهول»، وإنما هي مقدمة ـ طالت بعض الشيء ـ لحديث آخر وأخير عن السيدة أمينة السعيد التي رحلت عنا في 14 أغسطس سنة 1995.

فأمينة السعيد معروفة للجميع بأنها صحفية ناجحة، ولكن الجانب «المجهول» في حياتها أكبر بكثير من الجانب المعلوم.

اسأل أي مواطن في مصر والوطن العربي كله:

ـ هل تعرف أمينة السعيد؟

وسوف تكون الإجابة ولا شك:

ـ نعم أعرفها... إنها الصحفية الكبيرة التي تجيب عن الأسئلة العاطفية والاجتماعية الموجهة إليها في بابها الصحفي الشهير «اسألوني».

وهذه الإجابة صحيحة ولكنها ناقصة إلى حد بعيد.

فأمينة السعيد فيها جوانب مجهولة، لم يلتفت اليها أحد، بل لعلي أقول إنها هي نفسها لم تلتفت إلى هذه الجوانب المجهولة الجميلة المؤثرة، رغم أن هذه الجوانب المجهولة في شخصيتها هي أهم الجوانب فيها، وهي الجوانب التي يجب أن نعرفها، ويجب أن يعرفها الناس جميعًا. وكلها جوانب تتصل بتاريخ مصر، وبالأزمات المختلفة التي عصرتنا وأرهقتنا وأوصلتنا إلى الأزمات التي نحاول الآن أن نتغلب عليها بقيادة الزعيم الوطني النبيل الصابر حسني مبارك.

أمينة السعيد، كانت امرأة ظريفة خفيفة الظل إلى أبعد الحدود، وهذه صفة من صفات مصر الخالدة في كل العصور.

وأمينة السعيد كانت صاحبة «خيال فني» خصب والخيال ليس معناه اختراع أحداث وشخصيات لا وجود لها، وإنما معناه هنا أن صاحب الخيال الفني هو في نفس الوقت صاحب ذاكرة قوية وقدرة عالية على الملاحظة، وأنه لا يهتم أبدًا ـ في حديثه أو كتابته ـ بأن يقدم أفكارًا «نظرية» وإنما يهتم بأن يحكي حكايات مما وقع له وصادفه في حياته، وكل حكاية من هذه الحكايات لها معنى، ولها مغزى، فبدلاً من أن يقول لنا صاحب هذه الحكاية: إنني أحب الصدق والأمانة، فإنه يحكي لنا حكاية تدل على أنه يحب الصدق والأمانة، وصاحب الحكاية أقوى تأثيرًا في النفوس من ذلك الذي يقول لنا كلامًا نظريًّا عامًّا فيه حكمة وموعظة!

أقل الناس تأثيرًا في الناس هم أصحاب المواعظ والحكم.

وأكثر الناس تأثيرًا في الناس هم أصحاب الحكايات والحواديت، وهؤلاء هم الفنانون، وإن كانوا لا يعلمون.

وهذا هو المعنى الأساسي الذي دفعني أن أجعل مقدمتي لهذا الفصل حديثًا عن كتاب «الإنسان ذلك المجهول»!

فلا يأخذك الغرور أبدًا أمام إنسان يحكي لك حكايات من هنا وهناك.

فالإنسان الذي يحكي حتى ولو «كناسًا» أو «بوابًا» هو إنسان عنده حكمة، ولديه رؤية، وهو لا يريد أن يقول لك بطريقة مباشرة: هذا رأيي، وهذه وجهة نظري، ولكنه يريد من خلال الحواديت والحكايات أن يعبر لك عن وجهة نظره، ورؤيته للدنيا وللناس.

وهذه هى عبقرية الإسلام العظيم عندما يؤكد في كتابه الكريم أنه «يضرب الأمثال للناس».

وضرب الأمثال، أحسن ألف مرة، من المواعظ والحكم.

فكل المواعظ لا يصدقها الناس.

وكل الأمثال والقصص والحكايات والتجارب أكثر عمقًا، وأكثر تأثيرًا على الناس.

وأعود إلى أمينة السعيد في حديثي الأخير عنها. رحمها الله.

لقد كنت أسميها «في سري» باسم «شهرزاد السعيد»؛ لأنها لم تكن تقول آراء أو تعلن أفكارًا نظرية مجردة، ولكنها كانت «تحكي حكايات»!

وكل حكاية من حكاياتها وراءها فكرة، ووراءها موعظة وعبرة!

كانت فنانة، وكانت مثل «شهرزاد» في «ألف ليلة» وكانت لا تكف أبدًا عن رواية حكاياتها وحواديتها الطريفة.

والحمد لله الذي أكرمني بأن أكون أحد المستمعين لها، والمحبين لحكاياتها وحواديتها الطريفة ذات المعنى والمغزى والهدف الجميل.

إنها أمينة السعيد المجهولة، وليست أمينة السعيد المعروفة للجميع.

وهي دليل حي على صدق نظرية «كاريل» صاحب كتاب «الإنسان ذلك المجهول».

ذلك لأن الشائع والمعروف عند الناس ليس هو «الحقيقي» أو «الصحيح».

فالمجهول ـ الذى ينبغي أن نبحث عنه دائمًا ـ هو الأكثر صوابًا والأكثر عمقًا، والأقرب دائمًا إلى الحقيقة والواقع.

ونتوقف هنا أمام بعض «حواديت أمينة السعيد».

ففي هذه «الحواديت» صدق وأمانة وخفة ظل، وفيها أفكار وراءها هي من أروع الأفكار.

وقد أكرم الله أمينة السعيد بتلميذة ممتازة هي الصحفية «نعمات رياض».

ولولا هذه التلميذة النابهة لضاع الكثير من الجانب المجهول الرائع في أمينة السعيد!

ولعل من أفضل نعم الله على الإنسان الممتاز أن يكون له تلاميذ مخلصون أوفياء.

وتاريخ الثقافة الإنسانية يثبت هذه القاعدة ويؤكد أنها قاعدة بلا استثناء!

فلولا «أفلاطون» ما عرفنا شيئًا عن «سقراط»؛ لأن أفلاطون كان تلميذًا نابغًا ومحبًا لسقراط، وكان سقراط أستاذًا عظيمًا لا يكتب، ولكنه كان يتحدث، فجاء تلميذه العظيم «أفلاطون» وسجل كل شيء عن «سقراط» وآرائه في كتابه الشهير «محاورات أفلاطون».

ولولا «أكرمان» لضاعت أحاديث عميد الأدب الألماني «جيته»، ولكن «أكرمان» تلميذ «جيته» سجل كل كلمة ذات معنى لأستاذه العبقري الإنساني العظيم، وأصدرها في كتاب رائع هو «أحاديث أكرمان» وهو للأسف غير مترجم إلى العربية.

وليس معنى ذلك أن أمينة السعيد كانت مثل «سقراط» أو «جيته» أو أن تلميذتها «نعمات رياض» هي مثل «أفلاطون» أو «أكرمان»!

ولكن المحاولة كلها جميلة ومحترمة، وهي «على قدنا» في كل شيء. لأننا بصراحة تخلفنا وأهملنا وأضعنا الكثير.. وكل محاولة من جانبنا جديرة بالاحترام، لأنها محاولة في الطريق الصحيح.

ومذكرات أمينة السعيد التي أملتها على تلميذتها «نعمات رياض» هي مذكرات بديعة، وقد أتيح لي أن أقرأها وأطلع عليها، رغم أنها لم تنشر في كتاب، وهي الآن في «دارالمعارف» ولا أدري لماذا تأخرت «دار المعارف» في نشرها على الناس في كتاب، وما فيها من مغزى كبير وفائدة حقيقية.

في هذه المذكرات حكايات وحواديت بديعة. وأتوقف عند إحدى هذه الحكايات!

تروي أمينة السعيد أنها ذهبت إلى أمريكا في وفد إعلامي بعد هزيمة 1967 لتصحح الأفكار التي شاعت عنا هناك بعد الهزيمة.

وتقول أمينة السعيد عن هذه الرحلة، بخفة ظلها الكبيرة:

ـ لقد ضربوني في أمريكا «علقة ساخنة» لا أنساها أبدًا.

ولنسمع «الحدوتة» الممتعة المحزنة معًا من أمينة السعيد نفسها:

«ذهبت إلى أمريكا ـ مع وفد إعلامي ـ نزور الولايات المتحدة المختلفة ونخطب هناك من أجل الدفاع عن أنفسنا..

أي لكي ندافع عن مصر وظروفها ووجهة نظرها في الأمور المطروحة.. أو بمعنى أصح للدفاع عنا والدعاية لنا ومواجهة ما قامت به إسرائيل من محاولات مستمرة ومستميتة للإساءة لسمعة مصر عسكريًا واقتصاديًا واجتماعيًا. لقد استطاعت إسرائيل أن تشوه صورة مصر في العالم بعد هزيمتنا في حرب 1967. وكان الجو كله مهيأ للتأثر بسبب موقفنا الضعيف في ذلك الوقت، وذهبت إلى أمريكا، ولا أنكر أنني ذهبت وأنا متهيبة للموقف

كله.. كنت ذاهبة لأتكلم وأتحاور وأدافع عن بلدي، وكل من كان في الخارج يلمس جيدًا ما كانت تفعله إسرائيل ضد مصر في الإعلام، حيث كانت تسيطر على أغلبه.. ولم يكن في هذه السيطرة الكفاية، فقد شعرت أن «اليهود» يتتبعونني في كل مكان في أمريكا.. كل مكان أذهب إليه، وكل مناسبة أحضرها، كانوا ورائي لكي يحرجوني.. كان هناك احتمالات أن تنشب الحرب من جديد، وكانوا متنبهين ومستعدين لهذا الأمر جيدًا».

وإذا أردت أن أقدم صورة أكثر وضوحًا للطريقة التي كنا نعامل بها في أمريكا في ذلك الوقت بسبب اليهود، فيكفي أن أذكر بعض ما حدث معي ولي في هذه الرحلة الأمريكية؛ إذ إنني اضطررت مرة لشراء «جورب» وكانت معي سيدة من السفارة المصرية في واشنطن، ودخلنا متجرًا من أكبر متاجر أمريكا، وطبعًا كنا نتحدث باللغة العربية، وإذا بالبائعة تسألنا عن اللغة التي نتحدث بها، ولما قلنا لها إنها اللغة العربية طردتنا من المتجر، ورفضت أن تبيع لنا أي شيء».

«ثم حدث مرة أخرى أن استقللت «تاكسي»، وهناك غالبًا ما يتحدث السائق مع الركاب، وبدأ الحوار ـ كالعادة ـ بيني وبين السائق، ولاحظ السائق أن لهجتي في اللغة الإنجليزية مختلفة بعض الشيء، فقال لي: «أنت لهجتك ليست إنجليزية» وحاول بعد ذلك أن يعرف «جنسيتي» وترددت قليلاً، ثم اضطررت أن أقول له الحقيقة بعد ذلك: أنني عربية من مصر، فما كان منه إلا أن أوقف السيارة وطلب مني النزول فورًا؛ لأنه لا يمكن أن يسمح لمصري بركوب سيارته».

ثم تواصل أمينة السعيد حواديتها الجميلة المؤثرة فتقول:

«سألتني «امرأة» عن جنسيتي، وكان هذا أفظع ما حدث لي، إذ بعد أن قلت لها: إنني مصرية، إذ بها تمسك بي من كتفي وتدفعني للحائط فارتطم به، وكررت هذا عدة مرات، وهي تطلب مني أن أجيبها عن هذا السؤال: لماذا ترفضون عمل اتفاق معنا.. «قولي لي.. مش راضيين تعملوا اتفاق معانا ليه.. تكلمي.. بتحاربونا ليه؟»، وطبعًا ساعتها تأكدت أنني وقعت في يد امرأة اسرائيلية، ولم ينقذني من يد هذه المرأة إلا

الدكتور حسين كامل سليم ـ سكرتير سعد زغلول والسكرتير العام لمجلس الوزراء والديبلوماسي المصري الكبير، والذى كان داخلا إلى الفندق الذي وقعت فيه هذه الحادثة مصادفة، ووجد تلك المرأة تفعل بي ما تفعل.. كانت مستمرة في زجري والاعتداء عليَّ بكل ما تملك وبطريقة وحشية، وجميع النزلاء يتفرجون على «العلقة الساخنة» التي تعطيها لي هذه اليهودية، ولم يحركوا ساكنًا، إلا الدكتور حسين كامل سليم الذي تدخل ـ برجولة ـ وأزاح المرأة اليهودية بشدة فاندفعت نحو الحائط وارتطمت به، وأخذني الدكتور حسين وصعد بي، وكنت في حالة يرثى لها.. أي والله، كنت أرتجف من قمة رأسي إلى أسفل قدمي لما حدث لي...».

«ثم حدث بعد ذلك في نفس السنة إقامة مؤتمر عالمي للمرأة وكان انعقاده في أمريكا أيضًا، وكان توقيته بعد هزيمة 1967، ولم أكن قد أفقت من زيارتي السابقة لأمريكا وما حدث لي فيها، وعندما كلفني المسئولون بالذهاب إلى هذا المؤتمر، احتججت على ذلك، وقلت لهم: لماذا ترسلونني إلى هذه النوعية العصيبة من المؤتمرات، وبعد هزيمتنا الفظيعة؟!.. كيف أستطيع مواجهة وفود العالم ونحن في هذا الوضع؟.. وكانت إجابتهم دافعًا كبيرًا لي إذ قالوا: أنت الوحيدة التي تستطيعين مواجهة هذه المواقف من أجل مصر.. وذهبت، وحدث ما كنت أتوقعه.. وجدت اليهود هناك يضعون على باب السفارة المصرية في «واشنطن» الأحذية القديمة التي تركها جنودنا المصريون في سيناء سنة 1967».

ومع هذه الظروف الصعبة استطاعت أمينة السعيد أن تواجه الموقف.. وخطبت بلغتها الإنجليزية المتقنة «وإن كان فيها لكنة خاصة وأقنعت الكثيرين بعدالة قضيتنا.

ولي تعليق على هذه الحكاية من حكايات أمينة السعيد، وهو تعليق بسيط أقدمه من قلبي دون مرارة أو حقد على أحد.

لقد عقدنا معاهدة سلام مع إسرائيل.. وأرجو ألا يضربنا أحد بعد ذلك، كما ضربوا أمينة السعيد سنة 1967!!

أما أحذية الجنود المصريين التي تركوها في سيناء سنة 1967، فالرد عليها أننا ـ ولا شك ـ نملك أحذية أخرى للجنود الإسرائيليين تركوها في سيناء نفسها سنة 1973. ولكننا لن نفعل مثلما فعلوا، ولن نعلقها على أبواب سفارة إسرائيل في أمريكا وإن كنا نستطيع أن نفعل.

إن حرب «الأحذية القديمة» هذه سهلة.. وإن كانت حضارتنا، وذوقنا الإنساني، يمنعان تمامًا أن نفعل ذلك.. فشعبنا طيب ومهذب رحيم.

والله ـ بعد ذلك وقبل ذلك ـ فوق الجميع والتاريخ مستمر. والظالم نهايته الانكسار والهزيمة. والمظلوم لابد أن يأخذ حقه بشرط ألا ينسى هذا الحق وألا يفرط فيه.

أتوقف الآن، بعد هذا الحديث الأخير عن أمينة السعيد، أو «شهرزاد السعيد» كما أحب أن أسميها، فقد كانت حواديتها كثيرة ولا تنتهي، وعندي منها عدد هائل من الحواديت وكانت هذه الحواديت ممتعة وجميلة ولها معنى ومغزى، ولكني أخاف أن يشعر القراء بالملل، وأنا أكره الملل وأخشاه، ولعلي أكون قد أعطيت إشارات كافية عن «الإنسان ذلك المجهول» كما قال الطبيب الفرنسي الأديب الفنان «الكسيس كاريل» في كتابه الجميل. فالشهرة لا تكفي لتحديد ملامح الإنسان، وقد تقوم الشهرة على جانب واحد من جوانب الإنسان، ليست هى أهم الجوانب فيه، فقد كانت «أمينة السعيد» أو «شهرزاد السعيد» مشهورة عند الناس جميعًا بجانبها الصحفي، ولكن الجمال فيها والمتعة الكبرى يتمثلان في جوانبها الأخرى المجهولة وهي الجوانب التي تمثلها المرأة الظريفة، وصاحبة الخيال الفني، والأديبة، والقادرة على الملاحظة ورواية الحكايات والحواديت، والتي كانت تسجل في «ذاكرتها الحديدية» كل ما مر بها من أحداث وتجارب، ثم ترويها بلسان مثل «العسل» في عذوبته ورقته وجماله، وهذا سرها وجانبها المجهول الذي لا يعرفه كثير من الناس.



بنت الشاطئ





رحلة العذاب والحب والنجاح في حياة «بنت الشاطئ»

أول امرأة عربية تتولى تدريس «التفسير القرآني» في أكبر الجامعات الإسلامية

خرجت الصحف المصرية يوم 13 أكتوبر «تشرين الأول» سنة 1991 بخبر نشرته بعض هذه الصحف على صفحتها الأولى يقول: «انتحر نجل الكاتبة الكبيرة الدكتورة عائشة عبدالرحمن «بنت الشاطئ» أمس، فقد أطلق رصاصة على رأسه ولقي مصرعه، وتولت نيابة مصر الجديدة التحقيق حيث تبين أن القتيل يعاني مرض الاكتئاب النفسي منذ فترة طويلة، وقد تلقت مباحث القاهرة بلاغًا من والدة القتيل بعثورها على نجلها المهندس «أكمل أمين الخولي» «38 سنة» غارقًا في بركة من الدماء في «الڤيللا» التي تقيم بها الأسرة.. وقد تبين من الفحص إصابة نجل الكاتبة الكبيرة برصاصة في الرأس، كما تم العثور على مسدس ألماني في حجرته، وأشارت والدة القتيل في التحقيقات إلى أن نجلها كان يعاني منذ سنوات الاكتئاب النفسي، وأنه قد حاول الانتحار أكثر من مرة، وتم «عزله» في ملحق داخل «الڤيللا» التي تقيم فيها الأسرة.

وفي اليوم التالي لنشر هذا الخبر، أي في يوم 14 أكتوبر «تشرين الأول» سنة 1991 نشرت جريدة «الأهرام» تصحيحًا للخبر السابق حيث قالت: «كشف تقرير الطب الشرعي في حادث وفاة المهندس «أكمل أمين الخولي» ابن الكاتبة الكبيرة الدكتورة «بنت الشاطئ» أن سبب الوفاة هو رصاصة طائشة انطلقت من مسدسه أثناء تنظيفه له،

واستبعد التقرير التصور المبدئي بأن الوفاة كانت حادثة انتحار.. وقد جاء في تحقيقات النيابة أنه تبين وجود «خزينة» بحجرة «أكمل» الخاصة، وأن هذه الخزينة كانت مفتوحة وبها أوراق مالية من مختلف العملات المصرية والأجنبية وأوراق أخرى، مما رجح أن المتوفى كان يقصد تنظيف المسدس وإعادته للخزينة لكنه فوجئ بخروج رصاصة منه تسببت في وفاته، وجاء في أقوال أقاربه وخادمه الخاص أنه كان يعاني في الفترة الأخيرة مرض «الصرع» وكان يحب العزلة والاستماع إلى الموسيقى وقراءة الكتب».

هذه إحدى المحن الكثيرة التي مرت بها الدكتورة عائشة عبد الرحمن المعروفة باسم «بنت الشاطئ»، والتي رحلت عن عالمنا يوم الثلاثاء أول ديسمبر «كانون الأول» سنة 1998 عن خمسة وثمانين عامًا، حيث إن الدكتورة بنت الشاطئ قد ولدت في مدينة دمياط في 6نوفمبر «تشرين الثاني» 1913. وقد خاضت بنت الشاطئ معارك طويلة متصلة حتى تتعلم وتصل إلى المكانة العلمية والأدبية الكبيرة التي وصلت إليها.

وفي هذه الرحلة الطويلة تعرضت لكثير من المحن كان على رأسها موت ابنها «أكمل» بالرصاصة التي قضت عليه، والدكتورة بنت الشاطئ تروي قصة وفاة ابنها على صورة تختلف قليلاً عما نشرته الصحف عن هذه الحادثة فتقول: «.. ابني «أكمل» ذهب إلى الموت في زهرة شبابه من جراء طلقة نارية اخترقت يده واستقرت في رأسه عن طريق الخطأ، وقد حدث ذلك بيده ومسدسه الذي اشتراه حين انتشرت جرائم السطو على البيوت، على الرغم من أنني كنت معترضة على شرائه للمسدس.. لكن أحد الأشرار باع له المسدس على غير علم مني، وهكذا صدق إحساسي وحدث ما كنت خائفة منه، ولا أملك سوى التجلد الذي تحول إلى نوع من التبلد».

على أن محنة بنت الشاطئ في ابنها «أكمل» لم تكن هي محنتها الوحيدة، فقد تعرضت قبل ذلك لفقد ابنتها الأولى «أمينة»، وتروي بنت الشاطئ هذه المحنة التي مرت بها فتقول في حديث صحفي لها: «كنت أراقب ابنتي أمينة من بعيد، وكنت أحس أنها لن تعيش طويلاً بعد موت والدها الأستاذ أمين الخولي سنة 1966. وكانت

«أمينة» تدرس للحصول على الدكتوراه في «ڤيينا» بالنمسا، وعندما مات والدها أبت أن تخذل ذكراه، وأتمت الدكتوراه على الرغم من اشتداد مرض «السكر» عليها. وكلما أصابها الضعف والوهن كانت تقول لنفسها «عيب يا أمينة بابا يزعل».. كانت أمينة نابغة ومتفوقة بشكل غير عادي وقد حصلت على الدكتوراه في الرياضيات بامتياز، فكانت أول طالبة تحصل على هذه الدرجة بامتياز في تاريخ جامعة ڤيينا. وقررت جامعتها أن من حق هذه الطالبة أن يسلمها رئيس الجمهورية شهادة الدكتوراه، فما كان من أمينة إلا أن اعتذرت عن عدم قبول هذا الحق، وطالبت أن يسلمها الشهادة مدير الجامعة؛ لأنه في رأيها أولى بذلك، فهو عالم في الرياضيات ويمثل الشخصية العلمية في الجامعة، بينما هي ـ أي أمينة ـ لا تمثل لرئيس الجمهورية سوى طالبة أجنبية متفوقة.. وما أذكره عنها أنها احتاجت إلى أن تفهم موقف الرياضيين الإسبان المعارض لنظرية «النسبية» لأينشتين، فاتجهت بكل قوتها إلى تعلم الإسبانية لكي تفهم هذه المسألة التي صادفتها في بحثها، ونجحت في تحقيق هدفها».

ثم تقول الدكتورة بنت الشاطئ: «نحن الآن نعرف أساتذة وعمداء في الجامعات العربية يسرقون الكتب أو «يسلقون» تأليفها في أيام قليلة».

وهكذا فقدت الدكتورة بنت الشاطئ ابنها «أكمل» وابنتها «أمينة» في عز شبابهما ولم يبق لها سوى ابنتها «أديبة» التي تهوى الرسم، وقد اختارت أن تنسحب من الحياة العامة وتكتفي بحياتها الشخصية كزوجة وربة بيت.

من هذه اللمحات المتفرقة نرى أن حياة بنت الشاطئ كانت مليئة بالأزمات والمحن فليس قليلاً أن تفقد الأم اثنين من أبنائها الثلاثة وهما في شبابهما. ولست أشك في أن ما حدث في حياة بنت الشاطئ من أزمات ومحن كانت له علاقة بصورة من الصور مع حياتها المليئة بالجهد والمثابرة والعمل الشاق. فإذا كانت الأم متفوقة ومجتهدة، ومنصرفة، إلى العمل الدائم وإلى ترقية نفسها وعقلها وثقافتها وإنتاجها الفكري والأدبي بصورة مستمرة، فإن هذه الأم تصبح مثلاً أعلى لأبنائها، يحاولون

اللحاق بها والوصول إلى مستواها، مما يؤدي في حالات كثيرة إلى اضطراب نفسي وذهني وعضوي في حياة الأبناء.. وأغلب ظني أن أبناء الدكتورة بنت الشاطئ قد تعرضوا لهذا النوع من التحدي العنيف، وهو أن يتفوقوا مثلما تفوقت أمهم، وأن يحاولوا الوصول إلى نفس المستوى، مما قد يؤدي بهم إلى الدمار والانهيار. وليس من الصعب أن نجد أمثلة كثيرة لهذه الحالة، عندما يفرض أبناء النابغين على أنفسهم جهدًا عنيفًا وثقيلاً فيتعرضون لشتى أنواع الاضطراب والمرض.

والحقيقة أن حياة بنت الشاطئ كانت حياة كفاح عنيف.. فقد كان والدها شيخًا من شيوخ الدين، وكان من كبار المتصوفين، وعندما ولدت بنت الشاطئ في أوائل هذا القرن «سنة 1913» كانت النظرة العامة في المجتمع العربي كله إلى المرأة لا تتعدى فكرة واحدة أساسية هى أن المرأة للبيت ولا يجوز أبدا أن تخرج للمجتمع، أوأن تظهر إلا في بيت أبيها أو بيت زوجها حين تتزوج. ولكن بنت الشاطئ حين بلغت سن الصبا، وأصبحت على شيء من الإدراك لأمور الحياة كانت تتمتع بما يمكن أن نسميه باسم «غريزة الفضول للفهم والمعرفة»، فكانت صاحبة عقل يتساءل دائمًا عن معنى الأشياء وسرها، ويبحث حوله طلبًا لإجابات وافية عن هذه الأسئلة.

وفي ظل بيئتها الدينية المحافظة، استطاعت بنت الشاطئ أن تحفظ القرآن بأكمله وهى في حوالي العاشرة من عمرها، وقد لفت هذا الأمر الأنظار إليها، وحاول البعض أن يقنع والدها أن يسمح لها بدخول المدارس، لكي تستكمل تعليمها، ولكن والدها رفض ذلك، بحجة أنها بنت رجل من رجال الدين، ولا يجوز لها أن تخرج إلى الحياة العامة حتى لو كان في ذلك من أجل التعليم. وكان حفظ القرآن كافيًا في نظر هذا الوالد، وقد حققت بنت الشاطئ ذلك الهدف النبيل الذي يجب عليها أن تتوقف عند حدوده. ولكن «فضول» بنت الشاطئ للمعرفة كان جازفًا فظلت تبحث عن مخرج من هذه الأزمة. حتى وجدت الحل في أن «تذاكر» في بيتها دون علم أبيها وأن تدخل الامتحانات «من المنازل»، وكان هذا النظام معروفًا في ذلك الوقت ومعترفًا به. وقد نالت بنت الشاطئ الابتدائية من المنازل. ونالت بعدها الثانوية التي كانت تسمى

أيامها باسم «البكالوريا» من المنازل أيضًا، ووجدت «بنت الشاطئ» المساعدة على ذلك من والدتها «الأمية» التي كانت تعرف ذكاء ابنتها وقدراتها العقلية العالية، وكانت تريد لها أن تتعلم وتتقدم في التعليم. وكان من الذين ساعدوها أكبر المساعدة أيضًا جدها لأمها واسمه «الشيخ إبراهيم الدمهوجي»، وكان رجلاً أميًا أيضًا، ولكنه كان حاد الذكاء قوي الملاحظة شديد الظمأ إلى المعرفة، ومن الطرائف المتصلة بهذا الجد أنه كان يملي على حفيدته الصغيرة «بنت الشاطئ» آراءه المختلفة فى الحياة والمجتمع والسياسة ويرسلها باسمه إلى الصحف فتنشرها الصحف بين المقالات التي تهتم بتقديمها إلى قرائها. كل ذلك وكاتب هذه المقالات لا يعرف القراءة والكتابة، ولكنه كان يعرف الحياة ويتأمل أحوالها بعمق وبصيرة وملاحظات ثاقبة، مما كان يجعل من مقالاته ذات قيمة تلفت أنظار الصحف فتنشرها وهي راضية عنها ومعجبة بها».

بعد أن نالت«بنت الشاطئ» «البكالوريا» أو الثانوية العامة من المنازل، تقدمت إلى الجامعة، والتحقت بكلية الآداب بجامعة القاهرة وكان اسمها في ذلك الوقت «جامعة فؤاد الأول»، ونالت «ليسانس الآداب» سنة 1939. وواصلت دراستها العليا حتى نالت الماچستير سنة 1941 والدكتوراه سنة 1950. وكان موضوع بحثها في الماچستير والدكتوراه معًا هو «أبو العلاء المعري» الذي أحبته «بنت الشاطئ» وعكفت على دراسته بعمق ودقة ورؤية جديدة. بل لقد قامت بنت الشاطئ بتأليف كتاب نادر في المكتبة العربية عنوانه «جديد رسالة الغفران ـ نص مسرحي من القرن الخامس الهجري»، وفي هذا الكتاب تقدم الدكتورة بنت الشاطئ «نصًا مسرحيًا» كاملاً مستمدًا من كتاب «رسالة الغفران» الشهير لأبي العلاء المعري، وكل ما جاء في هذا النص من حوارات هو من «رسالة الغفران» نفسها، ولم تقم بنت الشاطئ إلا بإعداد هذه الحوارات في الشكل المسرحي المعروف. وهذا الكتاب يستحق دراسة خاصة مستقلة لأهميته وقيمته وجرأته الأدبية والفنية. ويكفي الآن أن نلفت الانتباه إليه.

ونعود إلى «بنت الشاطئ» ورحلة كفاحها الطويلة، فنجد أنها بدأت تكتب في الصحف وهي طالبة بالجامعة في أواسط الثلاثينيات. وبسبب البيئة المحافظة التي

كانت تنتسب إليها لم تستطع «بنت الشاطئ» أن تكتب باسمها الصريح وهو عائشة عبدالرحمن، واختارت لنفسها هذا الاسم المستعار وهو «بنت الشاطئ»، وهو الاسم الذي اشتهرت به، وأصبح مألوفًا للناس.. وقد استمدت «بنت الشاطئ» اسمها المستعار من بيئتها الأولى في مدينة «دمياط» التي ولدت بها، و«دمياط» تقع على شاطئ النيل، وبالتحديد في نهاية فرع النيل المعروف باسم «فرع دمياط» حيث ينتهي هذا الفرع في هذه المدينة، ويلتقي عند هذه المدينة نفسها بالبحر الأبيض المتوسط، وقد بدأ استخدام «بنت الشاطئ» لاسمها المستعار على صفحات جريدة «الأهرام» سنة 1936، عندما أرسلت بعض مقالاتها إلى هذه الجريدة عن أحوال الريف المصري فنشرتها الجريدة واهتم بها رئيس تحريرها في ذلك الوقت «أنطون الجميل 1877 ـ 1948»، وقد بحث «أنطون الجميل» عن بنت الشاطئ حتى تمكن من دعوتها إلى لقائه في مكتبه بـ«الأهرام» فعينها محررة بهذه الجريدة العريقة، وظلت تعمل بـ«الأهرام» منذ ذلك الوقت حتى وفاتها في أول هذا الشهر. وأثناء دراستها كطالبة في كلية الآداب تعرفت على أستاذها الشيخ أمين الخولي، وتعلقت به أشد التعلق، وهي لا تتردد عندما تروي ذكرياتها في القول بأنها «أحبت» هذا الأستاذ الجليل، وقد انتهت العلاقة بينها وبين أستاذها بالزواج، وكان الشيخ الخولي متزوجًا من سيدة فاضلة أخرى، فرضيت «بنت الشاطئ» أن تكون زوجة ثانية له، وهو أبو أولادها الثلاثة «أمينة» و«أديبة» و«أكمل»، وتقول بنت الشاطئ حول علاقتها بالشيخ الخولي: «كنت ألمحه خلال العام الأول لي بكلية الآداب، بين الحين والحين في ردهات الكلية بزيه اللافت وسمته المهيب وملامحه المتفردة، يحف به دائمًا عدد من تلاميذه شبه مسحورين وقد أخذوا في حوار متصل معه، ولم أكن أتصور بحال ما، أن هذا الأستاذ غريب عني، وأظل أفكر طويلاً: أين ومتى يا ترى لقيته من قبل؟.. وما كنت أرتاب في أني عرفته قبل أن ألقاه».

وقد تعلمت بنت الشاطئ من زوجها الشيخ أمين الخولي كثيرًا، واعترفت في مذكراتها وأحاديثها أنها كانت تحبه وتتعلق به، وقالت: «.. هل هناك من يتزوج دون حب؟ الزواج الطبيعي لابد أن يسبقه الحب.. ولقد كنت أتخيل الشيخ الخولي وأنا

في الطريق إليه، وكنت ألقاه قبل أن ألقاه، وصحيح أنني تزوجته على «ضرة» أو «زوجة ثانية»، ولكنني كنت قد وصلت إلى درجة من النضج بحيث لا تمنعني «ضرة» من لقائه. كنت أشب على أقدامي وأرتفع لكي أراه. والحب والكره داخلان حتى في أصول الفقه، وقد قال «الشاطبي» في كتابه «الموافقات»: «القلوب بيد الله...».

وقد كتبت عائشة عبد الرحمن قصيدة حزينة في رثاء الشيخ أمين الخولي ونشرتها في الأهرام بعنوان «كلمات للذكرى في يوم حزين» وذلك في الذكرى الخامسة لرحيله عام 1971، ثم عادت ونشرتها في كتابها الذى روت فيه سيرتها الذاتية وعنوانه «على الجسر»، وفي هذه القصيدة تقول:

اشرب الكأس ولا تبق ثمالة

ما علينا

يستوي حلو ومر

وافترض أنا رفضنا شربها

هل يبالي رفضنا

دهر يمر؟

هون المر علينا أننا

قد جرعناه طويلاً

قطرة في إثر قطرة

ومضى الدهر علينا

لاهيًا لم يلق نظرة

فلنسغ من كأسنا

هذي الثمالة

وتنهي «بنت الشاطئ» قصيدتها كما بدأتها بالتعبير عن إحساسها الحزين بالضياع والاغتراب بعد فقد الزوج الذي كان في نفس الوقت حبيبًا ووالدًا وأستاذًا ورائدًا لها في طريق الحياة وطريق العلم، فتقول:

كل دنياك ضياع واغتراب

واكتئاب وملاله

ما علينا،

يستوي رفض وصبر

عاتب الأقدار ما جدوى العتاب؟

يستوي نفع وضر؟

وافترض أنا هربنا من جنون وخيال

هل لدى العقل الجواب

عن سؤال وسؤال؟

هل درى أين المفر؟

أو رأى في اليوم مرسى

غير وهم وضلالة؟

فَسِرْ في التيه فلم تبق ذبالة

يستوي ليل وفجر

واجرع الكأس ولا تبق ثمالة

يستوي حلو ومر

وعندما تخرجت الدكتورة بنت الشاطئ في الجامعة ونالت الماجستير والدكتوراه تم تعيينها في كلية الآداب جامعة القاهرة، ووصلت إلى درجة «مدرس مساعد»، ثم فوجئ

الجميع بأنها تقدم استقالتها من هذا العمل ومن عمل إضافي آخر كانت قد تم انتدابها إليه في وزارة المعارف «وزارة التربية والتعليم الآن»، وهذا العمل هو المفتشة الأولى للغة العربية في الوزارة. كان ذلك في أوائل الأربعينيات. وقد أثارت هذه الاستقالة انتباه كثير من المعلقين والصحفيين المعروفين في ذلك الوقت، وكان من الذين علقوا عليها الكاتب الصحفي المعروف مصطفى أمين، وكان رئيسًا لتحرير مجلة «الاثنين» التي كانت تصدر أسبوعيًا عن مؤسسة دار الهلال، وكان ذلك قبل أن يؤسس مصطفى أمين مع شقيقه على أمين جريدة «أخبار اليوم» الأسبوعية سنة 1944. والغريب أن مصطفى أمين استنتج من استقالة بنت الشاطئ استنتاجًا واحدًا هو أن المرأة لا تصلح للعمل العام؛ لأن «فطرتها» تميل إلى التفرغ لشئون الأسرة والبيت، وأغلب الظن أن هذا الاستنتاج كان خاطئًا، حتى لو كان استنتاجًا يعتمد على ما قالته بنت الشاطئ بنفسها في كتاب استقالتها. أما الاحتمال الأكبر في مجال تفسير استقالة بنت الشاطئ من عملها بالجامعة ووزارة المعارف، فهو ما أثير من شائعات وانتشرت في الأوساط الجامعية حول حبها لأستاذها الشيخ أمين الخولي، مما كان سببًا في إحراج بنت الشاطئ، وإحراج الشيخ أمين معًا. وقد كان للشيخ الخولي على وجه الخصوص أعداء وحاسدون بين أساتذة الجامعة، حيث كان هذا الرجل أستاذًا لامعًا له تلاميذه يحيطون به ويرفعون شأنه، وكان رجلاً حرًّا جريء العقل والتفكير، مما كان يثير حوله كثيرًا من العواصف، وكانت الشائعات التي تتصل بقصة الحب بين الشيخ وبنت الشاطئ سلاحًا استخدمه أعداء الشيخ للتشهير به، ويبدو لي أن ذلك كان هو سبب استقالة بنت الشاطئ من عملها بالجامعة بعد أن وصلت إلى مركزها العلمي بجهد شاق وتفوق لافت للأنظار، ولكن مصطفى أمين نظر إلى الأمر نظرة أخرى وكتب يقول: «فوجئت إدارة جامعة فؤاد الأول «جامعة القاهرة الآن» بخطاب من الكاتبة المعروفة «بنت الشاطئ» تستقيل فيه من وظيفتها «مدرسة مساعدة بكلية الآداب، ومفتشة لغة عربية بوزارة المعارف». وقد قالت حضرتها في ذلك الخطاب: «إنني خرجت من البيت أطلب العلم، ولم يكن الاحتراف غاية لي في يوم ما، وفي هذا العام

أتممت دراساتي الجامعية العليا بإعداد رسالتي للدكتوراه، فأصبحت أشعر أن الاحتراف يؤذي فطرتي ويعطل مواهبي، وأريد أن أفرغ لإنتاج حر كريم، في ظل بيت كريم». وقد أحالت الجامعة هذا الخطاب إلى وزارة المالية مرفقًا بخطاب تقدير حار للآنسة، وإعجاب بجهادها الظافر في سبيل استكمال ثقافتها العالية.. وطلبت الجامعة تسوية حالتها على أساس منحها علاوتين من علاوات الدرجة الخامسة.

ثم يقول مصطفى أمين في نفس المقال: «والجديد في هذا الموضوع أن «بنت الشاطئ» هي أول فتاة تستقيل من وظيفة فنية، مع أن النظام الجامعي يبيح لها أن تستمر في الخدمة بعد الزواج.. ومن زميلاتها في كلية الآداب اثنتان بقيتا في الخدمة، بعد أن تزوجتا، وهما الدكتورتان درية فهمي وسَهير القلماوي.. ومجلة «الاثنين» ترى أن لهذه الاستقالة مغزى بعيدًا، فهي ليست مسألة خاصة بموظفة في الجامعة، ولكنها تتصل بالحركة النسائية كلها، فالفتيات عندنا يجاهدن جهادًا شاقًا طويلاً في سبيل التعليم، وغاية ما يطمحن إليه أن يظفرن بوظيفة رابحة محترمة. فماذا يكون شعورهن حين يرين واحدة منهن قد استقالت بعد أن ظفرت بأرقى وظيفة فنية تطمح فيها فتاة، وكانت المفتشة الأولى للغة العربية في مصر؟ ماذا يكون شعورهن وهن يسمعنها تقول في خطاب رسمي «إن الاحتراف يؤذي فطرتي ويعطل مواهبي»؟.. ترى هل هناك «ثغرة» في الحركة النسائية عندنا؟ وهل كان التوجيه العلمي في مدارس البنات، ناقصًا أو مرتجلاً؟ وهل «الاحتراف» الذي وجهت إليه فتياتنا، يؤذي فطرتهن كما تقول بنت الشاطئ؟».

«مهما يكن الجواب عن هذه الأسئلة فالذي لا شك فيه أن انسحاب «بنت الشاطئ» من وظيفتها الفنية الرابحة، فيه إعلان بأن الوظيفة ـ مهما سَمَتْ وعظمت ـ لا يمكن أن تعوض حرمان الفتاة من الأمومة والبيت، وأن الجمع بين الوظيفة والبيت، لا يرضي الفطرة السليمة. فهلا آن الأوان لتعديل تعليم البنات تعديلاً يوجهها إلى هذه الغاية، بدلاً من أن تستنفد قواها ونضرتها في تعليم يوجهها نحو الاحتراف».

هذا ما كتبه الأستاذ مصطفى أمين في أوائل الأربعينيات، تعليقًا على استقالة بنت الشاطئ من عملها بالجامعة ووزارة المعارف. ويبدو أن تفسيره لهذه الاستقالة كان بعيدًا عن الصواب. والتفسير الأقرب إلى الواقع هو أن «بنت الشاطئ» أرادت أن تبتعد عن العمل في مكان واحد مع الشيخ أمين الخولي، بعد أن امتلأت الجامعة بالشائعات حول ما بينها وبين الشيخ من حب، وقد أرادت بنت الشاطئ أن تخفي هذا التفسير لاستقالتها من الجامعة، أو تخفف منه، فاستقالت أيضًا من وزارة المعارف.. وبذلك لم تكن استقالة بنت الشاطئ تعبيرًا عن هروبها من العمل العام وميلاً إلى التفرغ التام للأسرة والبيت.. ومما يرجح التفسير الذي نقدمه هنا لاستقالة بنت الشاطئ من وظائفها الرسمية أنها استمرت في عملها المنتظم بـ «الأهرام»، وواصلت الكتابة على صفحاته. كما أنها واصلت دراستها العليا وحصلت على درجة الدكتوراه سنة 1950. وانتهت حرب الشائعات ضدها بزواجها من الشيخ أمين الخولي، فلم يعد هناك مجال للتشهير بها أو بالشيخ، وبعد أن نالت بنت الشاطئ درجة الدكتوراه عادت إلى الجامعة، ولكنها كانت جامعة عين شمس هذه المرة، وليست جامعة القاهرة التي كان يعمل بها زوجها الشيخ أمين الخولي. وقد ظلت بنت الشاطئ تعمل بالتدريس الجامعي حتى آخر لحظة في حياتها، وظلت تجمع بين عملها الجامعي وعملها الصحفي حتي النهاية أيضًا، ولم تتوقف عن نشر مقالاتها الأسبوعية بـ «الأهرام» إلا قبل وفاتها بأسبوع واحد.

❊ ❊ ❊

تلك بعض الخطوط العامة في شخصية بنت الشاطئ، وهي تصور لنا كفاحها الطويل من أجل أن تتقدم في المجال العلمي، وأن تتمكن من التأثير على الرأي العام بأفكارها وكتاباتها المختلفة وقد تحملت بنت الشاطئ في طريقها إلى تحقيق أهدافها العالية آلامًا كثيرة وصعوبات عسيرة وألوانًا من المحن القاسية، ولكنها مع ذلك لم تتردد في مواصلة العمل، حتى وصلت في أدائها الفكري إلى أعلى درجة يمكن أن يصل إليها أي إنسان جاد، رجلاً كان أو امرأة، ويكفي أن نعلم أن بنت الشاطئ كانت أول سيدة تشغل منصب «أستاذة للتفسير» في الجامعات العربية، ولعلها المرأة الوحيدة التي شغلت هذا

المنصب العلمي الذي كان قبلها مقصورًا على الرجال، وقد تولت «بنت الشاطئ» تدريس «التفسير» لفترة طويلة في «كلية الشريعة» بجامعة «القرويين» في مدينة «فاس» المغربية، وكانت تحظى خلال سنوات تدريسها الطويلة في المغرب باحترام واسع من الأوساط العلمية، وقد سلمها الملك الحسن الثاني ملك المغرب وسام «الكفاءة الفكرية»، وسلمها هذا الوسام بنفسه، وألقى كلمة في هذه المناسبة قال فيها:

«لا أريد أن تمر هذه الفرصة دون أن أنوه بوجود كاتبة عالمة، ومفكرة عزيزة لدى كل مسلم عربي تمتع بقراءة ما كتبت، وتمتع بالنظر إلى سلوكها، واستنتج ما لتعاليم الإسلام من أثر في توجيه المرأة المسلمة.. تلك التعاليم التي جعلت المرأة شقيقة الرجل في الأحكام، فكانت شقيقته في الحقوق والواجبات، فجزاكِ الله خيرًا عن المرأة الإسلامية والمرأة العربية».

وبعد هذه الرحلة السريعة مع بنت الشاطئ في حياتها وكفاحها الشخصي والعلمي، تستحق بنت الشاطئ دراسة أوسع لأفكارها ومعاركها الفكرية وآرائها المختلفة وهو ما سنحاوله في الفصول القادمة.

مصادر هذا الفصل:

1- سيرة بنت الشاطئ الذاتية، والتي نشرتها تحت عنوان «على الجسر» ـ مطبوعات الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة.

2- أحاديث بنت الشاطئ الصحفية وأهمها وأكثرها دقة حديثها مع الأستاذ «على العميم» ونشرته جريدة «الشرق الأوسط» في 8 أغسطس «آب» 1994.

3- مقال للدكتور طه حسين عن بنت الشاطئ نشرته جريدة «أخبار اليوم» في عددها الصادر في 28 أغسطس «آب» سنة 1965.

4- كتاب «جديد في رسالة الغفران ـ نص مسرحي من القرن الخامس الهجري» ـ للدكتورة بنت الشاطئ ـ منشورات دار الكتاب ـ بيروت ـ الطبعة الأولى 1972.

صفحات أخرى
من حياة بنت الشاطئ

كيف عبرت عن حبها وكيف كسبت معركتها مع العقاد؟

كانت حياة الدكتورة بنت الشاطئ «1913 ـ 1998» العلمية والأدبية حياة طويلة مليئة بالجهد والمثابرة والعمل الدائم النشيط، وإذا عرفنا أنها بدأت الكتابة حوالي سنة 1935، ولم تتوقف منذ ذلك التاريخ حتى قبل وفاتها في الأول من ديسمبر «كانون الأول» الماضي بأيام قليلة، فإن معنى ذلك أنها قضت ما يزيد على ستين سنة متصلة في عملها الفكري والثقافي، وقد نشرت لها جريدة «الأهرام» بعد وفاتها ست مقالات في الأيام الستة الأولى من شهر رمضان هذا العام، وكانت قد تعودت أن تكتب للأهرام مقالات يومية في شهر رمضان، ولكنها لم تنجز من مقالات هذا العام سوى ست مقالات، كتبتها قبل وفاتها ونشرتها الأهرام بعد الوفاة، وقد صرحت بنت الشاطئ في حديث لها مع الكاتب الصحفي الأستاذ محمد يونس أجراه معها منذ ثلاث سنوات بقولها عن برنامجها اليومي إنه يبدأ «بصلاة الفجر، وبعده أتجه إلى هوايتي الوحيدة وهي القراءة والكتابة، لا يقطعهما إلا الصلاة وتناول الطعام، وحين أدخل إلى مكتبتي أقطع صلتي بالعالم، ومع طول العمر ودعت من ودعت وفارقت من فارقت فلا سلوى لي ولا عزاء إلا القراءة والكتابة والجلسات العلمية مع الطلاب وأصدقاء الفكر، وهذه الجلسات تسعدني وتؤنس وحدتي، ذلك هو البرنامج اليومي لبنت الشاطئ، سواء أكانت في مصر، أم كانت في خارجها حيث كانت تقوم

بالتدريس في الجامعات العربية المختلفة. وهذا البرنامج اليومي الدقيق القائم على الجدية والالتزام يفسر لنا غزارة إنتاج بنت الشاطئ وعمقه، فهو إنتاج قائم على البحث والتنقيب والدراسة الواسعة، وليس إنتاجًا قائمًا على الخواطر والتأملات والمشاعر الوجدانية السريعة، مما قد لا يحتاج معه الكاتب إلى جهد كبير مستمر في القراءة والبحث. ولا شك أن مما يساعد على تفسير شخصية بنت الشاطئ أنها نشأت نشأة ريفية، فهي «فلاحة» صلبة العود، قوية الإرادة، قادرة على العمل الجاد بغير حدود، وذلك هو شأن «الفلاح الحقيقي» الذي يواجه تحديات الحياة الصعبة في صبر شديد، وإقبال على العمل لا يعرف التوقف، ففي شخصية الفلاح تكون المثابرة هي الرد على التحدي المستمر له في الواقع الذي يعيش فيه، فهو يعمل ليرد عنه كل أنواع الأذى، من فقر وضعف في المحصول الزراعي وغير ذلك مما يواجه شخصية الفلاح كل يوم، وقد اكتسبت بنت الشاطئ شخصية «الفلاحة» المجتهدة المثابرة من حياتها الأولى في الريف، وفي إحدى مقالاتها القديمة فسرت بنت الشاطئ علاقتها الوثيقة بالريف، حيث تقول إنها سمعت من جدها لأول مرة ذلك المثل الشهير وهو «... من فات قديمه تاه»..، و «ولم أنس هذه الكلمة على مر الأيام.. لم أنسها وأنا أنتقل من «دمياط» البلدة الشاطئية الوديعة، إلى القاهرة الضخمة، وأواجه أضواءها الساطعة لأول مرة.. لقد كانت كلمة جدي هذه حماية لي من سحر المدينة وفتنتها، وقد حمت عيني من أضوائها التي تخطف البصر، وحفظت لي طبيعتي الريفية بكل بساطتها وسذاجتها، وكل نقائها وصراحتها، وعشت في القاهرة فلم أندمج قط في مجتمع المدينة، ولا استهوتني أزياؤها وألوانها وعبثا حاولت زميلاتي أن يغرينني باقتناء ثوب للسهرة، أو حضور عرض للأزياء، أو معرفة طريق مزيفي الوجوه وبائعي الأقنعة، ومازلت حتى يومنا هذا أجد نفسي في الريف، وأتعلق بأرضه الطيبة، وأذهب إليه كلما ضقت بصخب المدينة، فأندمج في المجتمع الريفي الكريم الذي لم يفسده التكلف والنفاق. وقد كتبت بنت الشاطئ هذا المقال عن تعلقها بالريف في مجلة «الاثنين» المصرية في عددها الصادر في 5 سبتمبر «أيلول»

سنة 1955، وكانت «بنت الشاطئ» حينذاك في الثانية والأربعين من عمرها، كما أنها كانت قد حصلت على الدكتوراه قبل ذلك بخمس سنوات؛ أي سنة 1950.

على أن غزارة إنتاج بنت الشاطئ، واتجاهها في النصف الأخير من حياتها إلى الدراسات الدينية المختلفة، قد أخفى جانبًا من مواهبها الأساسية، فقد كانت في المرحلة الأولى من حياتها تكتب في الأدب والنقد، وكانت تكتب القصة القصيرة، وكانت تكتب عن نساء عصرها المعروفات، فكتبت عن «باحثة البادية» أو «ملك حفني ناصف» وكانت أديبة وشاعرة ورائدة من رائدات النهضة النسائية في العالم العربي، وكتبت «بنت الشاطئ» أيضا عن الأديبة العربية اللبنانية المعروفة «مي»، وكانت «بنت الشاطئ» في كتابتها عن مثل هذه الشخصيات النسائية تحاول أن تصور في بساطة وصدق وإحساس عميق،ما كانت تتعرض له المرأة العربية التي تخرج إلى الحياة العامة، خاصة في النصف الأول من هذا القرن، من متاعب وصدمات تصل أحيانًا إلى حد المأساة، كما حدث في حياة «باحثة البادية» وفي حياة «مي»، فقد تعرضت هاتان الأديبتان لظروف قاسية صعبة بسبب شجاعتهما، وإقدامهما على المشاركة في الحياة العامة، في وقت لم يكن يساعد المرأة العربية على ذلك، وما كتبته «بنت الشاطئ» عن «باحثة البادية» و«مي» يعتبر من أجمل وأصدق الكتابات عن كفاح المرأة العربية في النصف الأول من القرن العشرين.

ولعل الذين يعرفون صورة «بنت الشاطئ» المشهورة الآن بين الجميع، وهي صورة الباحثة في العلوم الدينية، والعالمة الإسلامية المتميزة.. لعل هؤلاء لا يعرفون أنها كانت في المرحلة الأولى من حياتها أديبة موهوبة تعبر عن نفسها في قوة وجمال، وقد تفجرت ينابيع موهبتها الأدبية، بسبب معركتها الأولى في الحياة، فقد أحبت أستاذها الكبير الشيخ أمين الخولي، وانتهت قصة هذا الحب بالزواج، وكان الشيخ متزوجًا فرضيت «بنت الشاطئ» أن تكون زوجته الثانية، ولم تمر قصة الحب بين «بنت الشاطئ» و«الشيخ أمين الخولي» بسلام، فقد كانت موضوعًا للغمزات الكثيرة التي أراد بها البعض أن يسيء إلى بنت الشاطئ وزوجها الشيخ الخولي، خاصة أن هذه القصة قد حدثت في أوائل الأربعينيات، وكان المجتمع العربي، في مصر وغيرها، لا

ينظر بارتياح إلى قصة حب يمكن أن تنشأ علنا بين أشخاص يعملون في الحياة العامة، وكان للشيخ الخولي محبون كثيرون، وكان له أعداء كثيرون أيضًا، وقد حاول هؤلاء الأعداء الذين اشتعلت في نفوسهم روح المنافسة مع الشيخ الخولي، أن يطعنوه من خلال حبه لـ«بنت الشاطئ» وحبها له، ولكن هذه المعركة انتهت عندما تم الزواج العلني بين الحبيبين، وكان تعبير «بنت الشاطئ» عن هذا الحب تعبيرا أدبيا من أصعب الأمور. فكيف تكتب أستاذة جامعية عن عواطف قلبها؟ وكيف تقول أديبة معروفة للناس إنها تحب حبا كبيرًا يملأ عليها حياتها؟ ولكن «بنت الشاطئ» وجدت وسيلة لذلك تعبر فيها عن نفسها تحت ستار شفاف من الحيلة الأدبية، فزعمت أن ما تنشره من تعبير عن عواطفها هو كتابات مخطوطة لصاحبة من صاحباتها، وقد اطلعت عليها «بنت الشاطئ»، وبذلت جهدًا لإقناع صاحبتها بنشر هذه الكتابات العاطفية دون الكشف عن اسم الكاتبة، وفي ذلك تقول «بنت الشاطئ»:

«لعل من واجبي أن أشير إلى المشقة التي عانيتها وأنا ألح على صاحبتي في نشر هذه المخطوطات، وإذاعتها. فقد أبت طويلاً أن تعرض على أعين الناس هذا السر العزيز الذي تراه سر الحياة، وضنت بتلك الأنفاس الغاليات ـ وهي عندها روح وجودها وجمال دنياها ـ أن تلقي هذه الكلمات على مسامعهم، وفيهم كافرون، وجاحدون، ومرتابون. على أني ما زلت بها أحدثها عن حق الفن، وأروي لها قصة ذلك الظلم الذي حاق بنا ـ نحن النساء ـ فغاب من تاريخ الفنون حديث عواطفنا ومشاعرنا، ثم مازلت بها أغريها ـ باسم حبها العبقري ـ أن ترتل على مسمع الدنيا نشيد إيمانها، ليستيقن الذين عرفوا، ويزداد الذين آمنوا إيمانًا.. حتى أذنت لي في نشر مخطوطاتها».

ذلك ما كتبته «بنت الشاطئ» في مقدمة قصائدها المنثورة عن الحب، وليس من الصعب أن تستنتج أن «صاحبة» «بنت الشاطئ» هى «بنت الشاطئ» نفسها، وأن الصراع هنا كان صراعًا داخليًا عانت منه «بنت الشاطئ»، وقد وجدت أن طريقة الخروج من هذا الصراع هي أن تقول إن صاحبة الكتابات العاطفية هي شخصية أخرى مختلفة. والحقيقة أن الشخصيتين هما في الحقيقة شخصية واحدة.

ونتوقف بعد ذلك أمام نموذج من هذه القصائد النثرية العاطفية التي كتبتها بنت الشاطئ حيث تقول تحت عنوان «نشيد»:

شاقني أن أرفع إليك نجواي، وقد فصلتني عنك قطعة من الزمان، هي في حساب الدنيا بضعة أيام، وهي في حسابي دهور وأعمار.. ويا ويلي من قصور اللغة.

أقول: فصلني عنك الزمان! ووالله ما تفصلني عنك قوة في الأرض أو في السماء. وما تغيب عني لحظة في يقظة أو منام. وإن كنت مع ذلك أفتقدك في كل زمان ومكان وأنت أنت ـ على النأي والقرب ـ ملء عيني، ملء قلبي، ملء دنياي.

يرهقني الشوق إليك وأنت معي.

ويفنيني الحنين لك وأنت إلى جانبي، وتعذبني اللهفة عليك وأنت بين يدي ويعز على الصبر عنك وأنت مني وإليَّ.

وهيهات أن يسع الكون بعض هذا أو يسعف عليه العمر أو يحتمله كيان من لحم،ودم، وأعصاب غدوت كلما لقيتك، عصفت بي، وزلزلت كياني، ومزقت أعصابي.

من عنف ما تبعثه فيَّ، وأجده فيك، وأعرفه منك. فإذا غلبني الصبر ونفد الاحتمال خفت على نفسي التمزق والموت، وروعني أن أرحل عن الدنيا وأنت فيها فأوشك أن أسألك أن تعلمني بعض الصبر عنك، وتروضني على شيء من الاحتمال لك رفقًا بي، وإبقاء عليَّ..

لكن نفسي لا تلبث أن تتمرد على هذا الضعف وتراني كفؤًا لذلك الحب وتراك أهلا لي وله فأمضي ساعية إليك:

إلى وقدة النار، وبهرة النور

إلى عصف الهوى، وغشية النشوة

إلى قسوة الألم وروعة اللقاء

إلى عنف التبدد، وهول الفناء

وفي عيني بريق العزم والإيمان

وعلى شفتي ابتسامة الرضى والفرح

وعلى وجهي إشراق الاستشهاد

وألقاك يومًا بعد يوم

فكأني ما لقيتك قبل ذلك اليوم.

فأندفع إليك في لهفة وشوق

كأنما عثرت عليك بعد أن أمضيت العمر كله

أفتش عنك

فإذا آن لنا أن نفترق

عصف بي الألم ـ وروعني التمزق

وتوهمت ـ من هول ما أكابد ـ أني لن ألقاك بعد اليوم فأتشبث بك، وأملأ عيني منك

كأنما أتزود قبل الرحيل

وهكذا، يتحمل كل لقاء لنا، أفراح اللقاء الأول

وأحزان اللقاء الأخير.

هذا نموذج من قصائد بنت الشاطئ النثرية، ولها في هذا المجال نماذج أخرى كثيرة ومتعددة، وهذا الجانب الأدبي الوجداني في حياة بنت الشاطئ مجهول أو شبه مجهول، وقد حرصت هي نفسها أن تلقي عليه بظلال كثيفة، حتى لا يظهر أمام الذين عرفوها في القسم الثاني من حياتها، والذي يمتد إلى حوالي أربعين سنة، فقد ظهرت في هذا القسم الثاني في صورة «عالمة الدين» التي يشغلها أمر القضايا الدينية

المختلفة، والتي تعمقت في أمور الدين بصورة جادة وحقيقية، وقد آثرت في هذه المرحلة أن تخفي صورتها الأولى، وهي صورة الأديبة الفنانة، وصورة المرأة التي تحب وتعرف أعمق معاني العشق والهوى، وصورة كاتبة القصة القصيرة التي تصور أحوال الناس وأهواءهم وصراعاتهم المختلفة.

وهذا خطأ منها، وخطأ من الذين يؤرخون لها ويتجاهلون هذه المرحلة الجميلة من حياتها، على المستوى الإنساني والمستوى الأدبي معًا. وما أعرفه أن «بنت الشاطئ» لم تجمع إنتاجها الأدبي الذى يمثل المرحلة الأولى في حياتها ولم تنشره في كتاب أو في عدة كتب، حرصًا منها على أن يثبت في أذهان الناس أنها كانت عالمة من علماء الدين، ولم تكن أديبة، ولا امرأة تعرف معنى الحب، بل وتغرق في هذا الحب إلى درجة عالية وعميقة، ولو أن جهدًا تم بذله في جمع الآثار الأدبية لبنت الشاطئ، لتغيرت صورتها إلى الأفضل والأجمل، ففي هذا الإنتاج الأدبي الذي أهملته بنت الشاطئ عمدًا، حرصًا على صورتها كعالمة من علماء الدين، ولا أقول من «عالمات الدين»، لأنه لم يكن في حياتنا العربية امرأة غير «بنت الشاطئ» استطاعت أن تحقق هذه المكانة بين الباحثين في الدين والعقيدة الإسلامية، عن علم وفهم ومعرفة عميقة واسعة.. لم يكن هناك غيرها من الباحثات العالمات اللواتي استطعن أن يصلن إلى هذه المكانة، حتى أصبحت أول وآخر «أستاذة» لعلم «التفسير» في أرقى الجامعات العربية، وهو علم «يحتكره» الرجال في معظم الأحوال والعصور. ولعل الأيام القريبة تحقق ما أدعو إليه من جمع تراث بنت الشاطئ الأدبي، ونشر قصائدها النثرية في الحب والعاطفة، ففي ذلك ما يلقي أضواء جديدة على شخصيتها، ويعلي من شأنها في أدبنا المعاصر، وليس كما تصورت هي أنه كان أمرًا يقلل من قيمتها، ويزري بها ويسيء إليها، فليس من الخطر على امرأة عالمة بالدين أن تحب وأن تسلك في حبها الطرق السليمة، وألا تسمح لهذا الحب أن يجمح بها ويؤذيها ويسيء إلى كرامتها.. فقد أحبت بنت الشاطئ وتزوجت من تحب، وكان زواجها من أكرم «الزيجات»، فلماذا الخوف؟ ولماذا الإنكار؟ ولماذا استبعاد ما أنتجه هذا الحب من آثار أدبية جميلة،

كتبتها بنت الشاطئ ثم أهملتها عمدًا، فلم تجمعها في كتاب، ولم تحاول أن تجعل الناس يتذكرونها، حتى لا يقول عنها أحد إنها أحبت بعمق وشغف، فمثل هذا الحب الحقيقي العميق لا يليق بعالمة من علماء الدين.

ونترك هذه الصفحة الأدبية الوجدانية في حياة بنت الشاطئ، والتي لا أشك أنها سوف تكون في يوم من الأيام صفحة جميلة مشرقة في حياتها وفي تاريخ الأدب العربي المعاصر، وذلك عندما يتم جمع كتاباتها الأدبية والعاطفية، وتقديمها إلى الناس دون خجل منها، ودون خوف من أن يكون لذلك أي تأثير على سمعتها، أو صورتها المشهورة والمألوفة كعالمة من علماء الدين واللغة والأدب؛ فليس في الحب الطبيعي، أو في التعبير عنه ما يسيء إلى أحد، أو يقلل من قيمته عند الناس.

* * *

معارك بنت الشاطئ

أولا: معركة مع العقاد

والآن لنترك هذه الصفحة الأدبية العاطفية، ونقف عند صفحة أخرى في حياة بنت الشاطئ وهي صفحة المعارك الأدبية والفكرية، والحق أن بنت الشاطئ كانت امرأة شجاعة، لم تتردد في إعلان آرائها إذا آمنت بها، ولم يمنعها «الخوف» من أن تخوض بعض المعارك القاسية، والتي تعرضت في بعضها إلى قدر غير قليل من التجريح والهجوم الحادّ عليها.

وقد كانت لها في حياتها الطويلة الخصبة ثلاث معارك على الأقل، الأولى مع العقاد، والثانية مع أحمد حسن الزيات، والثالثة كانت مع الدكتور مصطفى محمود.

أما معركتها مع العقاد فكان موضوعها المرأة بصورة عامة، والمرأة في الإسلام بصورة خاصة، فقد أصدر العقاد ـ وهو الذي وصفه الزعيم الوطني سعد زغلول بالكاتب الجبار ـ كتابين عن المرأة، أحدهما هو كتابه «هذه الشجرة» والثاني هو

كتاب «المرأة في القرآن». وقد عبر العقاد في الكتابين عن آراء عنيفة ضد المرأة، فهو يقول ـ على سبيل المثال ـ في كتابه «هذه الشجرة»: «...، وما زالت المرأة رقيقًا مستضعفًا منذ كانت، وقد جعلتها الشرائع القديمة متاعًا لعائلها وأبت أن تهبها إرادة مستقلة عن إرادة وليها في أمر من أمور حياتها، وحرمتها بعض تلك الشرائع حق الميراث إلا إذا لم يكن لمن ترثهم نسل من الذكور، كما ضنت عليها تلك الشرائع أن تكون لها ثروة خاصة بها. قال «ماني» حكيم الهند: «ينبغي أن يوضع النساء في الليل والنهار تحت كنف أوليائهن، طائعات كل الطاعة لهم، معولات كل التعويل عليهم»، والهنود يقولون ما معناه: «لابد للمرأة من سيد في كل أدوار حياتها، فسيد البنت أبوها، وسيد الزوجة زوجها، وسيد الأم ولدها» وكذلك كانت حالها في الصين، وكان الرومانيون في الغرب يجيزون للرجل التصرف في حياة امرأته كما يتصرف في دوابه وعقاره. ولا تتزوج المرأة عندهم إلا إذا شاء أبوها. ولا يسقط حق الأب في زواج ابنته حتى لو كان مجنونًا».

هذا بعض ما يقوله العقاد عن المرأة في كتابه «هذه الشجرة»، وهذا الكلام بالتحديد هو نوع من العرض التاريخي لأحوال المرأة في عصور قديمة، وشعوب مختلفة، فهو ليس رأي العقاد في المرأة، ولكن رأي العقاد في المرأة قائم على أن النظرة القديمة للمرأة نظرة صحيحة في مبادئها الأساسية، وأن المرأة ينبغي أن تعود إلى البيت، وأن دورها الصحيح هو دور الأمومة ورعاية الأسرة، وأن قدراتها العقلية والجسمية لا تبيح لها شيئًا أفضل من ذلك، وأن ما حدث من خروج للمرأة إلى الحياة العامة كان بسبب الضرورات الاقتصادية، وسوء النظام الاقتصادي في العالم، وهو النظام الذي أرغم المرأة على أن تعمل، لأن عمل الرجل لم يعد كافيًا لسد حاجة الأسرة، وهذا خطأ في النظام الاقتصادي العالمي، ولو تم إصلاحه فلن تكون هناك حاجة إلى عمل المرأة، ولا حاجة إلى مشاركتها في الحياة العامة.

هذه خلاصة لرأي العقاد في المرأة، وقد حاول العقاد أن يؤكد صحة رأيه باستنتاج بعض الأدلة المستمدة من القرآن الكريم وخاصة في كتابه «المرأة في القرآن»، وهنا

تصدت له بنت الشاطئ ووقفت ضد آرائه، وكانت بينهما معركة مشهورة في أوائل الستينات، ولنترك بنت الشاطئ تتحدث بنفسها عن هذه المعركة التي اشتعلت بينها وبين العقاد فتقول في حديث لها مع الكاتب الصحفي السعودي «علي العميم»:

«أنا بدأت الكتابة في سن مبكرة، وكنت أكتب في جريدة «الأهرام» وكان لي مكتب فيها، وفي أحد الأيام التقيت بالأستاذ العقاد في مكتب رئيس التحرير أنطون الجميل، وسمعت من العقاد كلمات تشجيع لي ككاتبة ناشئة. ثم سألني العقاد عن روايته الوحيدة «سارة»، وهل قرأتها؟ قلت له: نعم قرأتها، قال: أحب أن أسمع رأيك فيها. قلت له: لم أجد نفسي في هذه الرواية، وبطلة الرواية أنثى هي «سارة» والأنثى أقرب إلى فهم الأنثى من الرجل. وقام العقاد من المكتب وانصرف وفي نفسه شيء من هذا الرأي السلبي في روايته «سارة» كتب بعد ذلك كتابه «المرأة في القرآن»، وشاعت آراؤه التي تنم عن عداء مبالغ فيه لجنس النساء، فقد كان يرى أن المرأة بطبيعتها «قذرة». وقد رددت عليه في مقال لي كتبته تحت عنوان «اللهم إني صائمة» قلت فيه إن المرأة التي يتحدث عنها العقاد والتي تتردد على مجالسه لا نعرفها ولا نعرف الذين يعرفونها. وقلت له أيضًا: أنت لا تعرف المرأة لا زوجة ولا بنتًا ولا أختًا، وكان عليك أن تعرفها ـ على الأقل كأمّ ـ أمّا قولك ـ أي العقاد ـ إن المرأة «قذرة» فالذي أعلمه أن أمهات الأنبياء جميعًا نساء، فهل هن قذرات؟».

هذا ما قالته بنت الشاطئ عن معركتها مع العقاد، وقد كان العقاد عنيفًا جدًا في ردوده على بنت الشاطئ وكان مما قاله في هذه المعركة إن «رأيه في المرأة هو من رأي الله» أي أنه يستند في رأيه على ما ورد في القرآن الكريم عن المرأة، وكان ممّا جاء في ردوده العنيفة على بنت الشاطئ: إن بنت الشاطئ هي آخر من يتكلم عن جنس النساء لأنها رضيت أن تكون زوجة ثانية، أي أنها رضيت بتعدد الزوجات.

وعندما نراجع هذه المعركة بين العقاد وبنت الشاطئ ونحاول الحكم عليها، نجد أن رأي بنت الشاطئ كان أقرب إلى الصواب ومنطق العصر الحديث من آراء العقاد.

فلاشك أن آراء العقاد في المرأة هي آراء لا مفر من وصفها بالآراء الرجعية، لأنها تقوم على نظرة سلبية للمرأة لم يعد لها مبرر فكري أو واقعي، فقد تقدمت المرأة وأثبتت قدرتها وكفاءتها في كثير من مجالات الحياة الفكرية والعلمية، ولم يعد هناك ما يبرر آراء العقاد المتعصبة ضد المرأة، وإصراره على أنها جنس تابع للرجل، وأنها تحتل مكانة ثانوية بعد الرجل في الكفاءة العملية والكفاءة الذهنية. ولكن العقاد كان صاحب قدرة عالية على تبرير آرائه وتدعيمها بالأدلة القوية والمعلومات الغزيرة، حتى لو كانت هذه الآراء خاطئة، فهو رجل واسع الثقافة، ولديه قدرة نادرة على التحليل.
ومع ذلك كله فلا شك أن العقاد قد خسر هذه المعركة مع بنت الشاطئ بالنسبة لغالبية الرأي العام الذي كان يتابع وجهة نظر الطرفين. ذلك لأن العقاد لم يكن يهاجم بنت الشاطئ وحدها، بل كان يهاجم المرأة بصورة عامة، وهو هجوم لم يكن مقبولاً. وعلى الإجمال فقد كانت آراء العقاد في المرأة من أضعف آرائه الفكرية والاجتماعية وهي آراء قابلة للنقد الشديد، مما جعل موقف بنت الشاطئ أقوى من موقف العقاد. وقد بقيت العداوة مشتعلة بين العقاد وبنت الشاطئ حتى وفاة العقاد سنة 1964، وبوفاة العقاد هدأت هذه المعركة، ولم تعد إليها بنت الشاطئ ولم تشغل نفسها بالانتقام الفكري من العقاد بعد رحيله، ولا يكاد اسم العقاد يظهر في أي عمل فكري من أعمال بنت الشاطئ، رغم كثرة دراسات العقاد الإسلامية، وانشغال بنت الشاطئ بهذه الدراسات الإسلامية نفسها. ولم تحاول بنت الشاطئ أن تجمع ما كتبته ضد العقاد في أي كتاب من كتبها، وأغلقت هذه الصفحة، ولم تعد إليها إلا في أحاديث متفرقة عندما يطلب منها أحد أن تتحدث عنها. ومن الواضح أن «بنت الشاطئ» نفسها كانت دليلاً عمليًا يقف ضد آراء العقاد؛ فقد اجتهدت بنت الشاطئ، وبدأت من الصفر، وخاضت متاعب كثيرة حتى وصلت إلى أعلى ما يصل إليه العلماء والباحثون من الرجال، وقد اختارت بنت الشاطئ أن تتخصص في علوم - ليست للنساء في الثقافة العربية - محاولات سابقة في مجالها؛ فقد دخلت بنت الشاطئ ميدان العلوم الدينية من فقه وتفسير وحديث وتحقيق للتراث، وأصبحت

مرجعًا موثوقًا به في هذه المجالات العلمية الصعبة، واستطاعت بنت الشاطئ أن تستخدم مواهبها الأدبية في تقديم بعض جوانب التاريخ الإسلامي، وخاصة شخصياته النسائية الكبرى، في أسلوب عصري جعل لكتاباتها شعبية واسعة ومؤثرة، وفي هذا كله نوع من الرد العملي على آراء العقاد في المرأة، ووصفها بأنها «ناقصة» في قدراتها الذهنية وغير ذلك من الصفات السلبية، فعندما تتاح الفرصة للمرأة، وتتحرر إرادتها من القيود والعقبات، وتكون لديها موهبة تنميها، وتسهر عليها كما فعلت بنت الشاطئ، فإنها تستطيع أن تحقق في الحياة العملية ما يحققه الرجال. والدليل هو بنت الشاطئ وغيرها من نساء العصر الحديث اللواتي نجحن عندما أتيحت لهن فرصة النجاح. على أن معركة بنت الشاطئ مع العقاد لم تكن معركتها الفكرية الوحيدة، كما أشرنا في بداية الفصل؛ فهناك معارك أخرى خاضتها بنت الشاطئ في جرأة وشجاعة، فخسرت بعضها وكسبت بعضها الآخر.

بنت الشاطئ الشاعرة..

جانب مجهول من حياة أديبة عربية كبيرة
كانت تؤمن بالأحلام وتجد لها في حياتها آثارًا واقعية

الجانب الأدبي في حياة بنت الشاطئ جانب يبدو شبه مجهول في حياة هذه الشخصية الكبيرة، ويعود ذلك إلى سببين أساسيين أشرت إليهما من قبل وهما، في اختصار وإيجاز، أن «بنت الشاطئ» قد قضت في حياتها الطويلة الممتدة ما يقرب من أربعين سنة متواصلة، حرصت فيها على أن تتفرغ للقضايا الدينية وحدها، مما جعل صورتها المعروفة والشائعة عند الجميع هي صورة «عالمة الدين» أكثر من أية صورة أخرى، والسبب الثاني هو أن بنت الشاطئ لم تحرص على جمع إنتاجها الأدبي في كتب تكون بين أيدي القراء، وكان حرصها الأكبر هو أن تقدم للقراء كتاباتها المتصلة بالفكر الديني في جوانبه المختلفة، ولا أظن أن «بنت الشاطئ» قد تعمدت إهمال إنتاجها الأدبي، ولكنها كانت ـ كما أشرت مرارًا ـ «فلاحة» مخلصة لأي عمل تقوم به، وقد دخلت عالم الدراسات الدينية فأخلصت له وغرقت فيه ونسيت كل ما عداه.

ولو كان الجانب الأدبي في حياة بنت الشاطئ جانبًا قليل الأهمية لما التفتنا إليه أو توقفنا عنده، ولكنه في الحقيقة جانب مُهِمٌ وممتع ومتنوع، وهو جانب يمثل نموذجًا من أفضل نماذج ما نسميه باسم «الأدب النسائي»، العربي في القرن العشرين.

وقد كان في شخصية «بنت الشاطئ» عنصر اعترفت به هي نفسها وآمنت بصدقه وما فيه من قوة إيجابية، هذا العنصر هو «العنصر الروحي» الذي تمثله الأحلام والخواطر التي تولد في قلب الإنسان فجأة ودون مقدمات، ثم يتحقق في الواقع بعض هذه الخواطر أو كلها دون سعي أو ترتيب، وهذا الجانب الروحي من الأحلام والرؤى والخواطر النفسية المفاجئة هو مصدر مهم من مصادر الأدب والفن، ومن يملك هذا الجانب ويؤمن به-ويعترف بأهميته، إذا كان من المشتغلين بالفكر والكتابة، لابد أن تكون صلته قوية بالتعبير الأدبي والفني؛ لأن الأدب والفن لهما صلة وثيقة بالعالم الخفي في حياة الإنسان.

وتتحدث الدكتورة بنت الشاطئ عن هذا الجانب الروحي، وذلك في كتابها «على الجسر» الذي روت فيه قصة حياتها، فهو في أدبها يشبه كتاب «الأيام» لطه حسين وكتابات توفيق الحكيم في «زهرة العمر» و«سجن العمر» و«العمر الضائع» و«عصفور من الشرق» وغير ذلك من أعمال الأدباء الذين كتبوا عن حياتهم وتجاربهم الإنسانية. وكتاب «على الجسر» لبنت الشاطئ كتاب جميل، يتميز بالحرارة والبساطة والتركيز والوضوح، بحيث يستطيع الإنسان أن يقرأه في جلسة أو جلستين دون أن يشعر بأي ملل أو ضيق من التفاصيل الخالية من المعنى، فالكتاب عمل أدبي، وفيه تصوير لمجموعة من التجارب الإنسانية التي مرت بها بنت الشاطئ، وهي تجارب عجيبة تكشف عن صفحات كثيرة من رحلة حياتها المليئة بالكفاح والجهاد من أجل العلم والمعرفة والثقافة، ومما جاء في هذا الكتاب عن تعلق بنت الشاطئ بالأحلام والرؤى قولها «صفحة29» عن تجربة مرت بها قبل أن تصل إلى العاشرة من عمرها:

«... إنها ذكرى رؤيا بعيدة، ظلت تردني عبر حدود الزمان إلى يوم بذاته، أخذت فيه مكاني في الصف، ودخل علينا مفتش وقور فبدأ يمتحننا فيما حفظنا من سور جزأي «عم» و«تبارك» المقررة على فرقتنا، وحين بدا ضيقه بتعثر التلميذات في التلاوة، تلطفت حضرة الناظرة «السيدة زينب الحناوي» فاقترحت أن يسمع تلاوتي

للقرآن الكريم الذي حفظت أكثره. وارتاب المفتش فيما سمع، ثم سألني أن أقرأ له «سورة النور»، فلما وصلت منها إلى قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾، دون أن أخطئ أو أتعثر، عاد يسألني أن أتلو ما أحفظ من «سورة الكهف»، فمضيت أتلو وهو يصغي بكل سمعه حتى دق الجرس مؤذنًا بانتهاء الحصة، فتوقف برهة يتحدث إليَّ ويدعو لي، ثم انصرف راضيًا وأنا أعجب في سري لما بدا لي من سذاجته، إذ كنت أعلم علم اليقين أن ما حسبه امتيازًا لي، يشاركني فيه كل طلاب المعهد الديني بدمياط، بل كل زملائي من صبية القرية في «كتاب الشيخ مرسي»! وعدت إلى البيت وأنا لا أفكر إطلاقًا في أن ما حدث لي بالمدرسة يستحق أن يروى لأهل البيت، غير أني عندما أويت ليلتها إلى فراشي، رأيتني في المنام جالسة في مقعدي بحجرة الدراسة، وإذا بملاك له أجنحة يهبط من السماء قرب النافذة المجاورة لمكاني، ويعطيني لفافة خضراء ثم يحلق عاليًا في السماء، ولما فتحت اللفافة وجدت فيها مصحفًا شريفًا لم تكن عيني قد وقعت من قبل على مثله فخامة وبهاء، وكنت بحكم نشأتي في بيئة بحرية نهرية تموج بالأساطير وتجسم تهاويل الخيال، ثم بحكم بنوتي لشيخ متصوف يعد الرؤيا الصادقة من علامات صفاء البصيرة وإشراق الوجدان، أقول: كنت بحكم نشأتي وبيئتي أنفعل بالأحلام وأتأثر بالرؤى، فلما صحوت من نومي، أدركت عن يقين بأن حياتي كلها مرتبطة بهذا المصحف، هدية السماء إليَّ في رؤياي، ومن يومها، لم أعد أتخلف عن مجلس الشيوخ والعلماء، وصار مكاني المفضل في خلوة أبي في جامع البحر «بمدينة دمياط»، أحاول أن أسبق عمري، وأتجاوز القدر المدروس لي من علوم الإسلام. ومن رؤيا الصبا هذه امتد الخيط غير المرئي بين ذلك الشوط الأول على شط النهر، وبين ما انتهى إليه طريقي العلمي من تلمذتي للأستاذ أمين الخولي، وتخصصي في دراسة النص القرآني على منهجه. أقول هذا وأنا أتمثل نفرًا من قومي يهزون رءوسهم حين يسمعون ما أروي من حديث رؤياي استنكارًا لتأثري بحلم عابر في منام صبية لم تكمل العاشرة من العمر.. ولعلهم لو نشئوا في مثل بيئتي، وتلقوا ما تلقيته من ميراثها النفسي والعقلي،

لما أنكروا من الأمر شيئًا. ومن عجب أنهم لا يستغربون قصة أجنبية تقوم عقدتها على رواسب في أعماق الذات من عهد الطفولة، وإنهم ليقرأون بشغف وتقدير بحوث علماء النفس المحدثين في الأحلام وبواعثها وآثارها وأصدائها وظلالها، حتى إذا قالها قائل منا من صميم واقعه، عجبوا وتندروا ناسين أننا بشر، قد يغلب أثر الرؤيا فينا حكم الواقع، ويتحدى منطق العاطفة ومنطق العقل».

وهكذا كانت «بنت الشاطئ» تؤمن بالأحلام والمصادفات غير الخاضعة لأي تخطيط أو تدبير، وهي تروي في كتابها «على الجسر» قصصًا أخرى في هذا المجال، ولا بأس من أن نتوقف أمام قصة ثانية، لما فيها من طرافة، ولأنها تؤكد هذا الجانب الروحي الخاص في حياة «بنت الشاطئ» وشدة إيمانها بهذا الجانب حيث تقول «صفحة54»:

«في استعدادي لامتحان الكفاءة الثانوية سنة 1932 أفرغت جهدي في تحصيل المقرر علينا من دروس الإنجليزية والفرنسية، وكتب الطبيعة والكيمياء، وسرقني الوقت فغفلت عن إحضار كتاب «تاريخ أوروبا الحديث» المقرر على السنة الثالثة الثانوية، ولم أنتبه إلى ذلك حتى افتقدته قبيل الامتحان.

ولم يكف الوقت لاستيعاب كل ما في الكتاب، فساورني ليلة «امتحان التاريخ» شعور بالقلق، ولم أملك حياله إلا أن أفوض أمري إلى الله، وأخذتني سنة من النوم، فرأيت فيما يرى الحالم أنني في قاعة الامتحان أقرأ من ورقة التاريخ، أول سؤال فيها عن «مارتن لوثر وحركة الإصلاح الديني». وصحوت من غفوتي، فلم أتردد في مراجعة هذا الفصل الذي كان قد فاتني من الكتاب، واثقة كل الثقة أن الامتحان فيه. وحين وزعت علينا أسئلة امتحان التاريخ في الصباح التالي، لم أعجب لصدق الرؤيا، وازددت يقينًا بأن الله معي.. على الطريق».

وقد استمرت بنت الشاطئ على مدى حياتها كلها مؤمنة أشد الإيمان بهذا الجانب الخفي الذي ترك تأثيرًا واسعًا على شخصيتها، وكان له أثر في الأحداث المختلفة التي

قابلتها، سواء أكانت هذه الأحداث صغيرة أم كبيرة، وكان أهم هذه الأحداث حادثة رئيسية هي لقاؤها بالشيخ أمين الخولي أستاذها في الجامعة، وقد أصبحت زوجته فيما بعد، وكانت الزوجة الثانية له، وقد التقيا سنة 1936، وبنت الشاطئ طالبة في الجامعة والخولي أستاذ بها، وكان عمر بنت الشاطئ ثلاثة وعشرين عامًا، وكان عمر الشيخ الخولي واحدًا وأربعين عامًا، وعن لقائها الأول بأستاذها وزوجها فيما بعد تقول بنت الشاطئ في كتابها «على الجسر» «ص103»:

«... تابعت الإصغاء إلى الأستاذ، وهو يلقي علينا مبادئ منهجه، حريصة على ألا تفوتني كلمة واحدة مما يقول. وبجهد مرهق تشاغلت عن عالمي النفسي المائج بشتى الخواطر لأعي ما أسمع، ولا شيء يزعجني غير دقات ساعة الجامعة معلنة عن سير الزمن. وكنت أتمنى لو توقف الزمن ليظل الأستاذ يتكلم، وأنا أصغي وأتعلم. من ذلك اللقاء الأول ارتبطت به نفسيًّا وعقليًا، وكأني قطعت العمر كله أبحث عنه في متاهة الدنيا وخضم المجهول.. ثم بمجرد أن لقيته لم أشغل بالي بظروف وعوائق قد تحول دون قربي منه، فما كان يعنيني قط سوى أني لقيته، وما عدا ذلك ليس بذي بال. وقد انصرفت من درسه الأول، في اليوم السادس من نوفمبر «تشرين الثاني» سنة 1936، وأنا أحس أني ولدت من جديد».

ومن الطريف أن يوم السادس من نوفمبر «تشرين الثاني» هو تاريخ ميلاد بنت الشاطئ وتاريخ لقائها بمن أحبته أيضًا.

وهكذا كانت بنت الشاطئ تعيش في ظل إحساس عميق بالدور الأساسي لعالم الأحلام والمصادفات والرؤى الخفية في حياتها، وكانت تحس بأن ما يحدث لها هو نوع من الأقدار المرسومة التي كانت تسير إليها بخطوات خاضعة لتوجيه لا تراه العيون... ومن هذا الإحساس القوي كانت بنت الشاطئ تكتب ما كتبته في حياتها من آثار أدبية متنوعة، وأهم هذه الآثار هو «الشعر»، وقد كتبت في هذا المجال شعرًا

لم تنشر منه سوى ثلاث قصائد ، أولاها كانت بعنوان «رؤيا»، وفي هذه القصيدة نجد أيضًا أن فكرة «الأحلام والرؤى» تسيطر على بنت الشاطئ، فقد كتبتها بعد رحيل زوجها الشيخ أمين الخولي سنة 1966، وكانت بنت الشاطئ، كما أشرت مرارًا، تحبه وتتعلق به وتعتبره مثلها الأعلى في الفكر والحياة، وقد ظلت بنت الشاطئ تحمل في قلبها هذه العاطفة القوية لأستاذها وزوجها حتى آخر يوم في حياتها، بل كانت تعتبر حياتها معه وبعده هي امتدادًا لحياته، ومحاولة من جانبها لشرح أفكاره وآرائه ومنهجه في تفسير القرآن الكريم. ويمكننا أن نعتبر أن قصة الحب بين بنت الشاطئ وزوجها الشيخ أمين الخولي من أقوى قصص الحب وأصدقها في تاريخ الأدب العربي المعاصر.

وفي قصيدة «رؤيا» وهي أول قصيدة كتبتها «بنت الشاطئ» بعد رحيل زوجها الشيخ أمين الخولي، تروي قصة «حلم» من أحلامها، وهو هذه المرة حلم من «أحلام اليقظة» وفيه ترى زوجها الراحل وتتحدث معه، ويجري بينهما حوار، يحاول فيه الشيخ كعادته أن يشجعها على الحياة ويدعوها إلى الاستمرار فيها ومواجهة مصاعبها ومشاكلها المختلفة. وكانت بنت الشاطئ تصدق أحلامها وتعتبرها جزءًا أساسيًّا من حياتها الواقعية. وفي قصيدة «رؤيا» نقرأ هذه الأبيات:

طيف من أحببته طاف بنا

فتنبهنا على وقع خطاه

خلته قد آب من رحلته

مرهف الشوق وقد طال سراه

بعد يأس من رجاء الملتقى

بلغ البين بنا أقسى مداه

***

لم نكن نمنا، ولكن غفوة

من كلال نال منا منتهاه

❊ ❊ ❊

فجأة نبهنا من غفونا

رجع إيقاع أليف من خطاه

وتهادت نحونا أنفاسه

تحمل البشرى لنا عطر شذاه

ردت الروح إلى أشلائنا

وسرت في قلبنا نبض حياه

فاستبقنا الباب لاستقباله

وعلى الأفق شعاع من سناه

لمسة ساحرة من كفه

عاد منها الكهف محراب صلاه

❊ ❊ ❊

قلت: أشكو من تباريح النوى؟

قال: لا ليس ذا وقت الشكاه

حسبنا أنا التقينا فاغفري

لزمان البين ما اغتالت يداه

قلت: أخشى ما طوى من غدره

قال: خلي همَّ أمس وغد

أمس قد ولى ولم تأت الغداه

قلت: ما أدري أحلم ما أرى

أم بعثنا...

وانتهى الصوت وتاه

❊ ❊ ❊

وصحونا فإذا تلك رؤى

بعثرتها الريح في تيه الفلاه

وإذا نحن كما كنا هنا

في قرار الكهف لم تفتح كواه

نلعن المر ونقتات الجوى

عافنا الموت وعافتنا الحياه

ورغم ما في القصيدة من ألفاظ قد تبدو «قديمة» مثل «الكوى» ومعناها النوافذ، والجوى ومعناها الحزن الشديد... رغم هذه الألفاظ، فالقصيدة بصورة عامة تبدو قصيدة رومانسية ناعمة، فيها ظلال من قصائد إبراهيم ناجي الرقيقة، وفيها صدى من أنغامه العذبة، وهي قصيدة تعبر عن ذلك الحلم الذي رأت فيه الشاعرة حبيبها بعد رحيله، وتحدثت إليه وتحدث إليها، وشكت إليه وحاول أن يخفف من حزنها وشجنها، ويدفعها لمزيد من الاحتمال والمثابرة فيما بقي لها من رحلة الحياة، وتنتهي القصيدة بأن تصحو الشاعرة من «غفوتها» فتجد أن الحلم قد فرَّ من يدها، وبقيت لها حياتها التي تتصور أنها ـ بعد رحيل الحبيب ـ قد أصبحت كهفًا مظلمًا ليست له نوافذ، وليس فيه ضوء.

ثم نقرأ لبنت الشاطئ قصيدة ثانية عنوانها «بعد عام» تدور في نفس الجو الرومانسي الحزين الذي تعبر فيه الشاعرة عن إحساسها بالفراغ الكبير بعد رحيل زوجها الذي كان يملأ حياتها بالحب والحنان، والقصيدة كلها وصف لهذا الفراغ الذي لا يملؤه سوى طيف الحبيب الغائب:

ومضى عام ومازلت هنا

أنقل الخطو على الجسر إليك

مرت الأيام تغذوني الجوى

كيف لم أهلك أسى حزنًا عليك؟

كلما قلت دنا ميعادنا

خانني الظن ولم أرحل إليك

مزقت أيدي المنايا شملنا

وأراني دائمًا بين يديك!

* * *

لم تغب رؤياك عني في الدجى

وحديثي كله عنك... ولك!

وأناجيك فيرتد الصدى

من بعيد سائلاً عنى وعنك

كيف أبقى بعد إيغال النوى

وحياتي سرها فيك.. وبك؟

و«إيغال النوى» هنا معناها طول الفراق والبعاد بين الحبيبين. ثم تنتهي القصيدة بهذه الأبيات الجميلة:

هل مضى العام وما زلت هنا

أنقل الخطو على الجسر إليك؟

أبأنفاسك أحيا أم ترى

مات بعضي وبكى بعضي عليك؟

وهذه القصيدة أيضًا، مثل القصيدة الأولى، تدور في أجواء واضحة من العاطفة الصادقة، ومن الحزن واللهفة والإحساس العميق بفراغ الحياة بعد رحيل الحبيب.

وكنت قد أشرت في فصل سابق إلى قصيدة ثالثة لبنت الشاطئ عنوانها «كلمات للذكرى في يوم حزين» كتبتها في الذكرى الخامسة لوفاة الشيخ أمين الخولي، ونشرتها الأهرام عام 1971 وبذلك يصبح المعروف عندي من شعرها الذي تلتزم فيه بقواعد القصيدة العربية التقليدية في الوزن والقافية ثلاث قصائد وهي قصيدة «رؤيا» وتاريخ كتابتها هو سبتمبر 1966 والثانية هي قصيدة «بعد عام» وتاريخ كتابتها هو مارس 1967 والقصيدة الثالثة هي قصيدة «كلمات للذكرى في يوم حزين» وتاريخها هو مارس 1971.

وقد نعثر في المستقبل وبمزيد من البحث والدراسة على قصائد أخرَى منشورة أو غير منشورة لبنت الشاطئ.

على أن بنت الشاطئ لم تعبر عن نفسها بهذه القصائد وحدها، وهي قصائد تلتزم فيها بقواعد الشعر العربي التقليدي في الوزن والقافية، ولكنها عبرت عن نفسها ومشاعرها بقصائد أخرى نثرية حرة منطلقة من كل القيود دون أن تلتزم فيها بوزن أو قافية. وحول نفس الموضوع وهو تجربتها في حبها لزوجها الشيخ أمين الخولي، نقرأ لها قصيدة نثرية تصور فيها كيف كان لقاؤها الأول مع حبيبها، وفيها تقول:

«آن لي بعد كل تلك الرحلة الشاقة أن أعرف جواب ما طالما سألت عنه:

ـ أين ومتى يا ترى لقيته، وسمعت صوته من قبل؟

فمنذ قابلته، تجلى لي السر المحجب الذي حيرنى أمدًا طويلاً ، وكانت مجاهدتي الصعبة سعيًا دائبًا لكي أصل إلى مرتبة الكشف التي يفني «أهل الحقيقة» أعمارهم في سبيل الوصول إليها..

فلقد آمنت من اللحظة الأولى للقائنا أنه اللقاء الذى تقرر في ضمير الغيب، منذ خلقنا الله من نفس واحدة، وخلق منها زوجها.

وإن عدتنا الدنيا اثنين في الحساب الرقمي والواقع العددي..

اثنين، لكل منهما اسمه ونسبه ولقبه وصفته وصورته، وعمله وشخصيته.

وبهذه الثنائية العددية يتعاملان مع الناس ولكنهما في جوهر حقيقتهما واحد لا يتعدد..

لا كما تغنى الشعراء بالروح الواحدة في جسدين.

ولا كما تمثل الصوفية رؤيا الفناء في ذات الحبيب

ولا كما تأمل الفلاسفة في وحدة الوجود

ولا كما تحدث العلماء عن الخلية الواحدة قبل أن تنقسم

وإنما هو سر وراء ذلك كله.

تجلت فيه آية الله الذي خلقنا من نفس واحدة وخلق منها زوجها

❋ ❋ ❋

وكنا أحيانًا نفترق

يذهب كل منا إلى عمله، أو يسافر في بعض شأنه

وقد يمضي أحدنا إلى أقصى المشرق، والآخر إلى أقصى المغرب.

لأن الدنيا لا تعرف إلا أننا اثنان

والحياة تفرض علينا أن نعانيها بهذه الثنائية العددية.

ورغم هذا كنا «النفس الواحدة».

وذلك ما أعيا الدنيا ويعييها أن تفهمه أو تتصوره وتتمثله.

إلا أن تحسبه من رؤى الشعراء الحالمين أو مواجد الصوفية العاشقين ويستعصي على منطقها أن تفسره.

إلا أن يقول فيه هذا المنطق: إنه من تآلف القلوب واندماج النفوس وتعانق الأرواح..
وراء عالم الواقع ومقاييس المادة ومنطق الحس وأبعاد المنظور.
وكنا أحيانًا نتخاصم!

وربما مرت علينا فترات غضب يحسبها أهلونا وأصدقاؤنا من لهفة الحب ودلال العاشقين... ويلمح فيها أرهفهم حسًّا وهج النار المشتعلة في أعماقنا يتلمس متنفسًا!

دون أن يتصور أحدهم أن المخاصمة أو المغاضبة ليست إلا صراعًا حتميًّا بين جوهرنا الواحد، وبين الثنائية المزدوجة التي يفرضها علينا واقع الحياة وقانون المادة وأوضاع الدنيا!

ومضى العمر كله وما كففت عن التساؤل:

ـ أكان يمكن أن أضل طريقي إليه، فأعبر رحلة الحياة دون أن ألقاه؟

وحتى آخر العمر، لم يتخل عني إيماني بأني ما سرت على دربي خطوة إلا لكي ألقاه..
وما كان يمكن أن أحيد عن الطريق إليه، وقد عرفته في عالم المثل ومجالي الرؤى وفلك الأرواح...

من قبل أن أبدأ رحلة الحياة».

وفي قصيدة نثرية أخرى تقول بعد رحيل حبيبها وزوجها الشيخ الخولي:

«.. وبدت الحياة لتلاميذه أقل جمالاً ونضرة من بعده، وأندر شجاعة وحكمة...

فكيف عساها تبدو لي

وقد كان هو نبضها الحي وسرها الأكبر

وكان هو الذي يعطيها قيمة ومعنى؟

وعلى درب وجودنا الواحد وحياتنا المشتركة..

سارت خطاه تشع الدفء والنور، وتفجر ينابيع الحب والخير والجمال

* * *

وما تصورت قط أن أعيش بعده

بل كان اليقين أن نتابع رحلتنا معًا إلى الدار الآخرة.

وأن ليس على الله بمستبعد أن تتجلى فينا وبنا آيته الكبرى، فنمضي معًا

كما جلت فينا ولنا في حياتنا الأولى

فكنا الواحد الذي لا يتعدد

والفرد الذي لا يتجزأ

* * *

كيف مضى وبقيت؟

أهو ابتلاء لإيماني ببشرية الإنسان، إذ أشهد الموت يغتال من كان يعطي الحياة حياة، ويفيض عليها جمالاً من شجاعته وحكمته، وذكائه وفروسيته؟

اللهم إني ما جحدت قط بشريته، وكل بشر يموت، لكنني ما توقعت أن أعيش بعده.

فهل هو الموت، لا يرى فينا إلا اثنين، لكل منهما أجله المقدر بالثواني، وعمره

المحسوب بالأنفاس؟

تلك إذن تجربة أخرى نكابدها «أي نجربها»، فيكون منا الحي الميت، والميت الحي، إلى أن ألحق به فيلتئم كياننا طيفًا واحدًا في عالم الأرواح.

أم لعلها الحياة أمهلتني ريثما أروي قصتنا على مسمع الزمان، تفسيرًا لآية الله العظمى فينا، خلقنا ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾؟

أم لعله القدر أراد لي أن تكتمل معاناتي لتجربة الحياة، فأبلو حزنها الأكبر كما بلوت نعمتها العظمى وفرحتها الكبرى؟

ما زلت حائرة لا أدري...

وعلى الجسر، ما بين الحياة والموت

في متاهة الحيرة والضياع

لا أكف عن رصد حركاتي، وإحصاء أنفاسي، مستغرقة في تأمل هذا المشهد الغريب من قصتنا.

مرددة مع كل نفس «من أنفاسي»:

كيف مضى... وبقيت!

❊ ❊ ❊

أسفًا!!!

كل الذي كان من حياتنا معًا انتقل إلى منطقة الأحلام والذكريات

والذي بقي، في نطاق الواقع هو هذا المشهد الفاجع بكل عمقه وأبعاده المترامية».

هذه كلها نماذج من قصائد «بنت الشاطئ»، سواء ما كان منها ملتزمًا بالقواعد الأساسية للقصيدة العربية التقليدية من وزن وقافية، أو كان قصائد نثرية تعتمد على تصوير مواقف وجدانية للشاعرة، في حبها الكبير وتجاربها الأخرى المختلفة في

الحياة. والقصائد النثرية المنشورة لبنت الشاطئ كثيرة، ويمكن أن يتكون منها ديوان كامل من هذه القصائد الشعرية الخالية من قواعد الوزن والقافية، وقد شاع هذا الأسلوب الأدبي شيوعًا كبيرًا في عصرنا الأدبي الحاضر، ولكن بنت الشاطئ لم تطلق على قصائدها النثرية اسم «الشعر» على الإطلاق لأنها كانت شديدة الحرص على الالتزام بقواعد التراث العربي الذي ليست فيه أية إشارة من قريب أو بعيد إلى إطلاق اسم «الشعر» على القصائد النثرية؛ فالشعر في التراث العربي هو القصيدة ذات الوزن والقافية، أما ما عدا ذلك فهو نثر. ولكننا لا نستطيع الآن أن نرفض إطلاق اسم «القصيدة النثرية» على ذلك اللون من الكتابة التي تعتمد على الوجدان والصور الفنية المختلفة، وتصدر عن إحساس بنوع من الموسيقى الداخلية التي يشعر بها الفنان وهو يعبر عن نفسه، رغم أن بعض من يكتبون هذه القصائد النثرية قد بالغوا في الأمر وتجاوزوا كل الحدود، وأصبحوا لا يرون الشعر إلا في هذه القصائد النثرية وحدها، وينكرون كل ما عداها، وهذا تطرف أدبي لا يمكن التسليم به أو قبوله على علاته الكثيرة، وهي قضية أخرى تحتاج إلى بحث آخر مختلف إلا أننا هنا نستطيع أن نقول: إن بنت الشاطئ كانت شاعرة، وإنها كتبت قصائد نثرية كثيرة، وكانت قادرة على أن تكتب قصائد تلتزم بالأوزان العربية المعروفة، وغيرها من القيود المحددة في التراث العربي القديم لمعنى «الشعر»، ولكنها آثرت أن تعبر عن نفسها في حرية وانطلاق، وكتبت قصائدها النثرية دون أن تسميها باسم الشعر، لأن ما كان يعنيها هو أن تعبر عن وجدانها ومشاعرها وتجاربها الإنسانية المختلفة، ولم يكن يرضيها أن تجعل من قصائدها النثرية دعوة للقضاء على معنى «الشعر» الذي يتحدد في التراث العربي بمعنى واضح يفصل بينه وبين النثر.

***

كانت «بنت الشاطئ» تؤمن بالأحلام والرؤى والقوى الخفية، وكانت تحب حبًا كبيرًا ملأ حياتها، واستمر مشتعلاً في قلبها حتى النهاية، وكانت «تتذوق» حياة المتصوفين الذين يعيشون في عالمهم الروحي، وكأنهم يعيشون في الحياة

الواقعية؛ فخيالات المتصوفين وما كانوا يحلمون به في النوم أو في اليقظة، كانت كلها عند هؤلاء المتصوفين هي الواقع الذي يعترفون به ولا يعترفون بغيره. ومن هذه الينابيع كلها تفجرت شاعرية بنت الشاطئ، وذلك جانب مجهول أو شبه مجهول في حياة هذه الشخصية الخصبة المتنوعة الجادة القوية، ولعلنا بما قدمناه عن هذا الجانب الشعري في حياة بنت الشاطئ الأدبية نكون قد ألقينا بعض الضوء على هذا الجانب المجهول في شخصيتها، وهو جانب الشعر والتعبير الوجداني عن تجارب النفس والحياة.

تحت راية القرآن:
معركة بنت الشاطئ ومصطفى محمود

كانت الدكتور بنت الشاطئ «1913 ـ 1998» لا تميل كثيرًا إلى المعارك الأدبية والفكرية العنيفة، وكانت تحب أن تمضي في طريقها الذي رسمته لنفسها بسلام وهدوء، ولكنها مع ذلك اضطرت إلى أن تخوض بعض المعارك الحادة، فتصدت للعقاد عندما كتب عن المرأة في كتابه «هذه الشجرة» وكتابه «المرأة في القرآن» وخرج على الناس برأي يقول ما معناه: إن المرأة تحتل مرتبة ثانوية في الحياة بعد الرجل، وإن المكان الوحيد المناسب للمرأة هو البيت، والمسئولية المناسبة لها هي رعاية الأطفال، وحاول العقاد بما يملكه من ثقافة غزيرة وقدرة عالية في التحليل للظواهر والمشاكل والقضايا المختلفة أن يقدم براهين عقلية قوية تثبت ما يقول به من «ثانوية» دور المرأة في الحياة. وصل العقاد إلى حد الاستعانة بآيات من القرآن الكريم مع تفسيره لها لإثبات صحة آرائه، وقال في ذلك كلمته الشهيرة «إن رأيي في المرأة هو من رأي الله»، أي أن رأيه في المرأة يعتمد على أدلة ثابتة من القرآن الكريم الذي يحمل إلينا رأي الله في شئون الإنسان والكون.

وتصدت بنت الشاطئ للعقاد، واستعانت بثقافتها الدينية العميقة والدقيقة في مجال تفسير القرآن ومجال الفقه والشريعة في الإسلام، ودافعت عن المرأة، وبرهنت بأدلة قوية جدًا على أن الفهم الإسلامي الصحيح للمرأة يختلف مع فهم العقاد لها، وأن تفسير العقاد للنصوص الدينية خاطئ وقابل للمراجعة الشديدة، وأن العقاد في موقفه

من المرأة إنما يعبر عن شعور خاص به يكاد يكون فيه نوع من «الثأر» و«الانتقام»؛ فالعقاد لم ينجح في حياته العاطفية، وتجاربه في هذا المجال انتهت بالفشل؛ فقد أحب الفنانة مديحة يسري قبل أن تشتغل بالفن، ولم ينجح في حبه لها، وأحب امرأة أخرى هي التي أسماها «سارة» وكتب عنها روايته الوحيدة المعروفة بهذا الاسم، وهي تكشف عن جوانب «الشك» و«الغيرة» التي امتلأت بها نفسه في هذه التجربة العاطفية التي لم تنجح أيضًا. والعقاد كما هو معروف لم يتزوج، وعاش وحيدًا في القاهرة منذ أوائل القرن العشرين حتى وفاته في مارس «آذار» سنة 1964؛ فهو على حد قول الدكتورة بنت الشاطئ: «لم يعرف المرأة زوجة ولا أختًا ولا بنتًا ولا أمًّا».

ولا شك أن الحكم العادل في هذه المعركة الفكرية كان لصالح بنت الشاطئ وليس لصالح العقاد. ورغم أن العقاد كان صوته أعلى بسبب مكانته الفكرية الراسخة وتاريخه الأدبي الطويل، إلا أن براهين بنت الشاطئ القوية والقائمة على الوعي والدراسة الدقيقة كانت كفيلة بأن تحقق لها الانتصار في معركتها ضد العقاد، وفي دفاعها عن المرأة.

ثم جاءت المعركة الثانية التي خاضتها بنت الشاطئ، وتاريخها هو سنة 1970، وهذه المعركة هي معركة «التفسير العصري للقرآن»، وكان الدكتور مصطفى محمود قد نشر على صفحات مجلة «صباح الخير» سلسلة من المقالات كان عنوانها فيما أذكر «التفسير العصري للقرآن»، ثم جمعها في كتاب له جعل عنوانه «القرآن ـ محاولة لفهم عصري»، وهناك اختلاف بين عنوان المقالات المنشورة في المجلة الأسبوعية، وبين عنوان الكتاب، والسبب في ذلك أن بنت الشاطئ كانت قد بدأت حملتها العنيفة على الكتاب في أثناء نشره تحت عنوان «التفسير العصري للقرآن»، مما دفع مصطفى محمود إلى إجراء تعديل طفيف في العنوان، وجعل منه «محاولة لفهم عصري»، وبذلك خفف مصطفى محمود من دعوته بأنه «يقدم تفسيرًا عصريًّا للقرآن» واكتفى بأن يقول إنها «محاولة للفهم العصري».

وقد جمعت بنت الشاطئ نقدها لمصطفى محمود في كتاب لها صدر في نوفمبر «تشرين الثاني» سنة 1970 تحت عنوان «القرآن والتفسير العصري»، وهذا الكتاب يكشف أمامنا تمكن بنت الشاطئ تمكنًا كاملاً وعاليًا من الدراسات القرآنية، مما جعل من نقدها لمصطفى محمود عملاً رائدًا من الطراز الرفيع، وبذلك حسمت بنت الشاطئ هذه المعركة الكبيرة لصالحها أيضًا، رغم أنها كانت معركة ضد كاتب ناجح وله شعبية واسعة هو مصطفى محمود بما يملكه من أسلوب جميل سهل وأفكار جديدة جريئة، مما جعل له جاذبية كبيرة وتأثيرًا واسعًا على الرأي العام، ومع ذلك كله لم تتردد بنت الشاطئ في خوض معركتها ضد آراء مصطفى محمود، حيث وجدت أن هذه المعركة ضرورية ولا يجوز التهاون فيها أو الفرار منها.

والحقيقة أن بنت الشاطئ في كتابها الرائع عن «القرآن والتفسير العصري» قد ضربت مثلاً عاليًا جدًا لقدرتها على أن تكون موضوعية ومهذبة وبعيدة كل البعد عن التجريح الشخصي؛ فقد اكتفت بتقديم الحقائق والبراهين العلمية التي تؤيد وجهة نظرها في أسلوب واضح دقيق شديد التركيز والصفاء.

وفي مقدمة كتابها تقول بنت الشاطئ:

«على مدى أربعة عشر قرنًا، لم يكن للأمة الإسلامية ملاذ يحمي بقاءها وتحقق به وجودها غير القرآن الكريم. وفي صراع القوى المعنوية بين الإسلام وخصومه، وصراع القوى المادية بين شعوب أمته وأعدائه، لم يعرف الإسلام هدفًا لعدوه ـ من أي جنس وملة، وفي أي عصر أو قطر سوى هذا الكتاب بسلطانه النافذ على ضمير الأمة، ولوائه الموحد لشملها على تنائي الديار وتباعد العصور وتفاوت الأجيال واختلاف الأجناس والألوان. وإذ لا سبيل إلى تحريف نصه الثابت، وتبديل كلماته الموثقة، كان همَّ أعداء الأمة أن يحتالوا عليها بتأويلات خلابة تنحرف بالفهم الإسلامي عن كتابه المحكم».

ولا تجد بنت الشاطئ بعد هذه المقدمة بديلاً عن فهم واحد للقرآن هو نفسه الفهم الذي فهمه به النبي ﷺ وأصحابه، وترى أن أية محاولة للخروج على هذا الفهم هي

عبث مليء بالخطر والضرر، وليس فيها نفع ولا فائدة، فالقرآن له تفسير واحد يجب أن نلتزم به، وليس من الصواب في شيء أن نغير تفسيره، ونقدم له تفسيرًا جديدًا كلما تغيرت الأماكن أو تغيرت العصور والأجيال. ومن هنا فإن بنت الشاطئ ترفض من البداية حكاية «التفسير العصري» هذه، وترى أنها تقودنا إلى نتيجة ليس لها محل من العلم أو الدين أو العقل أو الحكمة. وهذه النتيجة هي أن القرآن يحتمل تفسيرين أو تفاسير متعددة؛ وبذلك يصبح القرآن بهذه الفكرة وكأنه نص غير ثابت... على أساس أنه يحتمل تفسيرات مختلفة تمام الاختلاف عن بعضها البعض، كلما تغيرت أحوال الناس أو سادت بينهم أفكار جديدة، أو اكتشف العلم مخترعات لم تكن موجودة عند نزول القرآن الكريم.

وفي نقد مبدأ «التفسير العصري» تقول بنت الشاطئ:

«فجأة، من حيث لا نتوقع، يتردد في أفقنا كلام عن حاجة الناس إلى تفسير عصري للقرآن يستجيب للتقدم العلمي، ويتابع ما يستحدث الإنسان من علوم العصر، وما يكتشف من أسرار الذرة والإليكترون وجيولوجيا القمر. ويسأل سائل: كيف يمكن أن يتجمد فهمنا للقرآن عند الذي فهمه أسلافنا منذ أربعة عشر قرنًا وقد عاشوا بعقلية عصر لم يكن يعرف كلمة بيولوجيا وكيمياء عضوية وعلم أجنة وتشريح وأنثروبولوجيا؟. وهذا كلام يبدو في ظاهره منطقيًا معقولاً يلقي إليه الناس أسماعهم، ويبلغ منهم غاية الإقناع دون أن يلتفتوا إلى مزالقه الخطرة التي تمسخ العقيدة والعقل معًا، وتختلط فيها المفاهيم وتتشابه السبل فتفضي إلى ضلال بعيد. وأول ما يشغلني في هذه القضية هو أن الدعوة إلى فهم القرآن بتفسير عصريّ على غير ما بينه نبي الإسلام ـ تسوق إلى الإقناع بالفكرة السامة التي تنأى بأبناء العصر عن معجزة نبي أميّ بعث في قوم أميين، في عصر كان يركب الناقة والجمل لا المرسيدس والرولزرويس والبوينج وأبوللو ولونا، ويستقي من نبع زمزم ومياه الآبار والأمطار، لا من مصافة الترشيح ومياه فيشي ومرطبات الكولا».

ثم تقول بنت الشاطئ:

«ونتورط من هذا إلى المزلق الخطر يتسلل إلى عقول أبناء هذا الزمان وضمائرهم، فيرسخ فيها أن القرآن إذا لم يقدم لهم علوم الطب والتشريح والرياضيات والفلك وأسرار البيولوجيا والإليكترون والذرة.. فليس صالحًا لزماننا ولا جديرًا بأن تسيغه عقليتنا العلمية ويقبله منطقنا العصري. هكذا باسم العصرية، نغريهم بأن يرفضوا فهم القرآن كما فهمه الصحابة في عصر البعثة ومدرسة النبوة؛ ليفهموه في تفسير عصري من بدع هذا الزمان. وباسم العلم، نخايلهم بتأويلات محدثة تلوك كلمات ساذجة عن الذرة والإليكترون وتكنولوجيا السدود، وبيولوجيا العنكبوت وديناميكا الصلب وجيولوجيا القمر. وفي ضجيج هذه الكلمات الطنانة الرنانة، وخلابة ما يقدمه التفسير العصري من عجائب وغرائب، ينبهر البصر وتتعذر الرؤية الثاقبة التي تميز حقًا من باطل، وعلمًا من دجل، وإيمانًا من زخرف قول وبهرج بدعة» ثم تكتب بنت الشاطئ هذه الكلمات التي تقول فيها:

«.. والعلم فريضة، والشهادة أمانة، وكلمة الحق مسئولية وتكليف. وفي مواجهة التيار الجائح، أؤدي فريضة العلم وأمانة الشهادة؛ لكي لا أبوء بلعنة إثم القلب».

وفي هذه العبارات الأخيرة إحساس صادق بالمسئولية العلمية، وفيها ضمير قوي نقي يدعو بنت الشاطئ إلى خوض هذه المعركة تحت «راية القرآن».

إلى هنا لا نجد أكثر من «موقف نظري» يرفض التفسير العصري وأي تفسير آخر يبتعد عن التفسير الأصلي والثابت للقرآن، ولكن أين النقد التفصيلي الذي يمكن أن يكشف أخطاء مثل هذا التفسير العصري؟ إن كتاب بنت الشاطئ عن «القرآن والتفسير» يكاد في كل صفحة من صفحاته أن يضع أيدينا على خطأ محدد وواضح تمام الوضوح من وجهة نظر الكاتبة الكبيرة.

ولنتوقف أمام أمثلة محددة؛ فتفسير القرآن كما تقول بنت الشاطئ من خلال ثقافتها الدينية الواعية له شروط أولها: المعرفة الدقيقة بعلوم اللغة العربية «فما من كتاب في علوم القرآن لم ينص على أن يكون المفسر عالمًا باللغة العربية» وكان الإمام مالك

يقول ما معناه: «لا يأتيني رجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً». أي «عاقبته عقوبة شديدة وجعلته عبرة لغيره».

وعلى أساس هذه القاعدة وضعت يدها على عدد من الأخطاء اللغوية في كتاب «القرآن ـ محاولة لفهم عصري» للدكتور مصطفى محمود؛ فالدكتور مصطفى على سبيل المثال يفسر كلمة يعشو» بأن معناها ينصرف، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾.

وتفسير «يعشو» بكلمة «ينصرف» خطأ، إذ إن «يعشو» معناها يضعف بصره وليس معناه «ينصرف».

ويجازف الدكتور مصطفى محمود بتأويلات للألفاظ لا تتفق مع القراءة الصحيحة للقرآن؛ فهو يفسر «النعلين» بأنهما هما النفس والجسد، وذلك في قوله تعالى لنبيه موسى عليه السلام: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾. ويقول الدكتور مصطفى محمود في ذلك: «المقصود بالنعلين هما النفس والجسد فلا لقاء بالله إلا بعد أن يخلع الإنسان النعلين: نفسه وجسده، بالموت أو بالزهد، والله يصورهما كنعلين لأنهما القدمان اللتان تخوض بهما الروح في عالم المادة».

وتعلق بنت الشاطئ على هذا التفسير، فتقول: «وذلك ما لا تعرفه لغة القرآن من أي سبيل».

مثال آخر للأخطاء اللغوية التي تأخذها بنت الشاطئ بقوة على مصطفى محمود حيث تقول: «اكتشف المفسر العصري أن القرآن إذ أنث العنكبوت في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ فذلك من الإعجاز العلمي للقرآن «لأن العلم كشف مؤخرًا أن أنثى العنكبوت هي التي تنسج البيت وليس الذكر، وهي حقيقة بيولوجية لم تكن معلومة أيام نزول القرآن».

وتواصل بنت الشاطئ تعليقها على تفسير مصطفى محمود للعنكبوت في هذه الآية الكريمة فتقول:

«يعرف المبتدئون من طلاب العربية أن القرآن جرى هنا على لغة العرب الذين أنثوا لفظ العنكبوت من قديم جاهليتهم الوثنية، كما أنثوا مفرد النمل والنحل فلم يقولوا في الواحد منها إلا نملة ونحلة. وهو تأنيث لغوي لا علاقة له بالتأنيث البيولوجي كما توهم المفسر العصري، وجرى لسانهم كذلك على تأنيث الشمس والأرض والسماء والدار والسوق، وكل ما يعرف في المصطلح اللغوي بالتأنيث المجازي، دون أن يتصور من له أدنى اتصال بالعربية أن التأنيث هنا يحمل على التأنيث البيولوجي».

وهكذا ترى بنت الشاطئ أن مصطفى محمود يفتقر إلى الشرط الأساسي الذي يسمح له بتفسير القرآن، وهو التخصص والعلم الدقيق بلغة العرب.

وتتوقف بعد ذلك عند بعض ما جاء في «التفسير العصري» من «شطحات» خيالية، ترى بنت الشاطئ أنها خارجة تمامًا على نطاق التفسير الصحيح للقرآن، وخارجة أيضًا على نطاق العلم مثل قول مصطفى محمود إنه اهتدى إلى «شفرة فواتح السور، مثل كهيعص، طسم، حم، مما لم يقل لنا النبي إنه يعلم له تفسيرًا، فكان تفسيره العصري لها: «إنها حروف لها معنى في ذاتها، وكلمات لها سرها ومدلولها، وإن غاب عنا فهمها، وهي علوم عليا سوف نصل إليها فيما بعد».

ومثال آخر للشطحات الخاطئة في التفسير العصري، هو ما يقدمه من شرح لقوله تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا﴾ حيث يقول مصطفى محمود في تفسير ذلك: «... لا تفسير لهذه الآية إلا أن تكون الأرض كروية دوارة، نصفها ليل ونصفها نهار، فإذا جاءت الساعة فإن نصف سكانها يكونون في ليل والنصف الآخر في نهار»، وتعلق بنت الشاطئ على هذا التفسير بقولها: «لقد جرى لسان العرب على القول: آتيك ليلاً أو نهارًا، فلا يفهم منه إلا التوقيت الزمني الذي لا يتعلق بكروية الأرض الدوارة».

وتسجل بنت الشاطئ أخطاءً أخرى متعددة على التفسير العصري منها كما تقول أن في هذا التفسير ابتعادًا عن النص القرآني: «بما يبيحه المفسر العصري لنفسه من وصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه، فيقول مثلاً: «المعماري العظيم، والمهندس

الأعظم للكون» أو يقول: «... والله هو سائق القطار الذي تفوق قدرته ومهارته مهارة جميع السائقين».. حين نتعلم نحن تلاميذ المدرسة القرآنية من مبادئ أصول الدين «أنه لا يجوز أن يوصف الله سبحانه وتعالى بغير ما وصف به نفسه» فإذا جاء في القرآن الكريم أنه تعالى: الغني، العليم، لم يجز لنا أن نقول مثلاً: الثري المليونير، والأستاذ العلامة العبقري. وإذا سمى نفسه بالملك، فليس لنا أن نسميه بالقيصر أو الإمبراطور أو السيد الرئيس. وإذا قال تعالى إنه «ذو العرش العظيم» لم يجز لنا أن نقول: «ذو التاج والصولجان، ويقول سبحانه: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾. فلا يجوز لنا أن نقيس عليه فنقول: ذراع الله مع أذرعهم أو فوقها، وهذا ما يغيب عن العصريين فيما يتصدون له من الكتابة عن القرآن والإسلام بغير علم، فتجري أقلامهم بألفاظ وصفات لله تعالى ينبو عنها الحس القرآني، كسائق القطار، فضلاً عن عدم جوازها بتاتًا في علم الأصول، وشبيه بهذا تورط المفسر العصري في حديثه عن «المعمار القرآني، وسيمفونية سورة الفاتحة».

وتهاجم بنت الشاطئ التفسير العصري في نقطة أخرى عندما تقول: «... وأخطر من هذا كله، أن يفسر الدكتور العصري للمسلمين كتاب دينهم، بنصوص من الإسرائيليات، بعد أن جاهد علماؤنا طويلاً لتحرير فهمنا الديني من العناصر الإسرائيلية التي دسها اليهود علينا، وحرصوا على توجيه الفهم الإسلامي للقرآن بمروياتهم الإسرائيلية، حين تعذر عليهم أن يحرفوه كما حرفوا القرآن». ومن هذه النماذج في «التفسير العصري» قوله في تفسير آيات القيامة في القرآن:

و«نجد في رؤيا يوحنا اللاهوتي صورة مشابهة للقيامة في القرآن، يقول ونظرت لما فتح الختم السادس وإذا زلزلة عظيمة حدثت، والشمس صارت سوداء كمسح من شعر، والقمر صار كالدم، ونجوم السماء سقطت إلى الأرض كما تطرح شجرة التين سقاطها إذا هزتها ريح عظيمة، والسماء انفلقت كدرج «سلّم» ملتف، وكل جبل وجزيرة يتزحزحان عن موضعهما».

وهذه النماذج من العودة إلى التوراة كثيرة في التفسير العصري، وفي التعليق على ذلك تقول بنت الشاطئ: هل يتصور الدكتور المفسر أن فهمه للقرآن يكون عصريًا، حين يفسره برؤيا يوحنا اللاهوتي؟ فليعلم إذن أن يهود القرن الأول قد سبقوه إلى هذه العصرية منذ بضعة عشر قرنًا، ودسوا على الفهم القرآني شحنة من هذه الإسرائيليات التي يراها الدكتور مظهرًا عصريًا، ويراها المنهج العلمي رواسب مما أقحم على الفهم القرآني لا تزال ناشبة في عقول من يتصورون أنهم علميون، من أبناء عصرنا الذي اقتحم مجاهل الفضاء!».

ثم تؤكد بنت الشاطئ أن تأويل الحقيقة بالمجاز، أو ما يمكن تسميته بالتفسير الرمزي للقرآن، في ألفاظه وصوره الظاهرة، ليس بالأمر المتروك للاجتهاد الشخصي، فله قاعدة لا يصح الخروج عنها، وتقول عن هذا المعنى:

«.. وجد المفسر العصري سبيل الاقتحام لميدان التفسير سهلاً بالعدول عن ظاهر النصوص القرآنية، إلى مجازيات عصرية لم تسمع بها مدرسة النبوة، ولا عهد لنا بها في لسان العرب ولغة القرآن. وفقهاء النصوص يعلمون أن تأويل الحقيقة بالمجاز لا يصح بغير قرينة دالة على قصد العدول عن ظاهر النص وأصل المعنى».

والتفسير العصري للقرآن مليء بالفتاوى التي يقدمها الدكتور مصطفى محمود كاجتهاد منه. وهنا تعترض بنت الشاطئ اعتراضًا شديدًا على ذلك، وتقدم نماذج من هذه الفتاوى وتضع يدها على ما تراه من أخطاء كبيرة فيها، ومعظمها يرجع إلى الخطأ في فهم النص القرآني نفسه، ونقص المعرفة الصحيحة بأسباب النزول، وتؤكد بنت الشاطئ أن الفتوى علم لا يجوز أن يتصدى له إلا من تمكن منه كل التمكن، وتروي على لسان الإمام مالك أنه قال: «ليس كل من أحب أن يجلس للحديث والفتيا «الفتوى» جلس، حتى يشاور أهل الفضل والجهة ـ الاختصاص ـ فإن رأوه لذلك أهلاً، جلس. وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخًا من أهل العلم أني موضع لذلك». ومعنى ذلك أن المفسرين الأوائل للقرآن كانوا يخضعون لشروط أقسى من

شروط الدكتوراه في أية جامعة عالمية.

وتنهي بنت الشاطئ كتابها الذي يمثل أكبر معركة فكرية خاضتها في حياتها كلها ببحث في ستين صفحة توجه فيه اتهامًا صريحًا إلى الدكتور مصطفى محمود بأنه نقل كثيرًا من صفحات كتاب لها عنوانه «مقال في الإنسان: دراسة قرآنية»، وذلك دون أن يشير إلى هذا الكتاب من قريب أو من بعيد، والأخطر من ذلك أنه نقل من هذا الكتاب واعتمد عليه اعتمادًا كاملاً دون أن يساعده ذلك على فهم النص القرآني على وجهه الصحيح، فقد أخطأ في فهم ما نقله عن بنت الشاطئ، وأخطأ في تقديم الشواهد، وأخطأ في فهم الشواهد نفسها. وتقول بنت الشاطئ في ذلك: «لن يفرغ للناس عجب إذا كشفت لهم عن وجوه التدليس في التفسير العصري للقرآن، وبينت لهم ما فيه من ضلال الاقتباس بجهالة، وعثرات النقل الغافل عن سياق النصوص المقتبسة وقيودها ودلالاتها. في سنة 1969 نشرت «دار المعارف بالقاهرة» كتابًا لي عنوانه «مقال في الإنسان: دراسة قرآنية»، بعدها، في سنة 1970، ظهر «التفسير العصري» كمقالات في مجلة «صباح الخير» ثم فصولٍ في كتاب مطبوع، ولفتني من أول وهلة ما بين الكتابين من صلة على التفاوت البعيد بين دراسة قرآنية تخضع لأدق الضوابط المنهجية الصارمة، وبين تفسير عصري يهيم في كل واد، ويضرب في متاهات الغيبيات، لا يضبطه أي قيد».

وقدمت بنت الشاطئ في هذا الجزء المهم من كتابها نماذج عديدة مما نقله «التفسير العصري» من كتابها «مقال في الإنسان»، وقدمت بنت الشاطئ أدلة على أن المنقول من كتابها ـ دون الإشارة إليه ـ لم يكن مفهومًا على وجهه الصحيح، فهو نقل مليء بالأخطاء.

ثم تقول بنت الشاطئ في السطور الأخيرة من كتابها:

«لعل أخطر ما تتعرض له الحرية، هو أن نحجر على حق متخصص في أن يرفض فتاوى غير المتخصصين وتدليسهم، وأن يقول: لا، فيما يستبيحون لأنفسهم من

امتهان لكرامة عقولنا، كما أن أخطر ما يزيف العصرية أن تطارد تهمة الجمود من يرفض فوضى الإباحة لأقدس الحرمات، وأن تتخذ العصرية قناعًا لشهود الجن والشياطين والملائكة عيانًا، وعلم الغيب شهودًا.

بروح عصرنا، تدرك أمتي أن أي علم يجب أن نلتمسه من مراجعه الموثقة، ونأخذه من علمائه المتخصصين. وبإيماننا بالعلم، ندرك أن عصرنا يفكر علميًا بعقلية الغد وطموح التطور، ويرنو إلى عصر ما بعد الوصول إلى القمر، أما الدين فنفهمه نقيًا بمنطق العقيدة، التي لا تتغير مبادئها بتغير الزمان والمكان، لأن الدين ثابت في أصله وقيمه ومثله. وأعلم أن ابنتي المتخصصة في الرياضيات تشتغل في دراستها الجامعية العليا بتعديل «نظرية أينشتاين في النسبية»، حين لا أطمح إلى أن أخرج من طول عكوفي على الدراسة القرآنية، بأكثر من محاولة فهم القرآن نقيًا أصيلاً كما بينه خاتم النبيين المبعوث بهذا القرآن ليبينه للناس!.

تلك هي ملامح المعركة الكبرى التي خاضتها بنت الشاطئ ضد «التفسير العصري» الذي قدمه الكاتب الكبير الدكتور مصطفى محمود. والغريب أن مصطفى محمود لم يرد على كلمة واحدة مما كتبته بنت الشاطئ، ولم يغير في كتابه سطرًا ولا جملة ولا حرفًا، وأمامي وأنا أكتب هذا المقال الطبعة الأولى من الكتاب الصادرة سنة 1970، والطبعة السابعة منه والصادرة سنة 1973، وليس بين الطبعتين أي اختلاف. ولا شك أن كتاب مصطفى محمود قد نجح من حيث إقبال القراء عليه، وهو كتاب ممتع وجذاب إلى أبعد حد في أسلوبه وطريقة عرضه وما فيه من خواطر دينية متنوعة، ولكن ذلك لا يعفي الكاتب الكبير مصطفى محمود من مسئولية الرد على نقد بنت الشاطئ الدقيق له... حتى لو جاء هذا الرد بعد رحيل بنت الشاطئ، فصوتها في كتابها «القرآن والتفسير العصري» لا يزال مسموعًا وقويًا إلى اليوم.



قصة المعركة الوحيدة الخاسرة في حياة بنت الشاطئ

لماذا تجنت بنت الشاطئ على مجلة «الرسالة» وصاحبها أحمد حسن الزيات؟

سوف نتوقف الآن وقفة أخيرة مع الدكتورة بنت الشاطئ «1913 ـ 1998» بعد رحلتنا معها في الفصول السابقة وقد أشرت إلى جوانب مجهولة من حياتها الأدبية.

وأشرت إلى معركتين أساسيتين خاضتهما بنت الشاطئ، إحداهما مع العقاد اعترضت فيها بنت الشاطئ على رأي العقاد في المرأة كما ورد في كتابيه «هذه الشجرة» و«المرأة في القرآن»، فقد كان العقاد يرى أن المرأة هي كائن ثانوي في المجتمع وأنها في منزلة تابعة لمنزلة الرجل في الحياة، وهاجمت بنت الشاطئ هذه الفكرة وقدمت حججًا وبراهين تثبت أنها فكرة غير صحيحة، أما المعركة الثانية فكانت معركتها مع مصطفى محمود حول «التفسير العصري للقرآن» وربط النصوص القرآنية بالاكتشافات العلمية الحديثة، وقد رأت بنت الشاطئ أن هذا المنهج في «تفسير القرآن» خاطئ وأنه بعيد عن المنهج الصحيح لقراءة القرآن وفهمه، وقدمت بنت الشاطئ كتابًا كاملاً شرحت فيه اعتراضها على التفسير العصري، وحذرت منه ومن آثاره السلبية. وأظن ـ حسب اجتهادي ـ أن بنت الشاطئ قد كسبت معركتها مع العقاد ومعركتها مع مصطفى محمود. وانتصارها في هاتين المعركتين يؤكد قوة

شخصيتها العلمية والفكرية والأدبية، وإلا لما استطاعت أن تخوض قتالاً فكريًا ناجحًا وعنيفًا مع كاتبين من أكبر كتاب العرب في العصر الحديث وأكثرهم تأثيرًا على الرأي وهما: العقاد ومصطفى محمود.

ولكن بنت الشاطئ كانت لها معركة شهيرة أخرى مع كاتب عربي كبير هو أحمد حسن الزيات «1885 ـ 1968»، وإذا كانت معركة بنت الشاطئ مع العقاد معركة فكرية اجتماعية، ومعركتها مع مصطفى محمود معركة فكرية دينية، فإن معركة بنت الشاطئ مع الزيات كانت معركة فكرية أدبية، وأظن أن هذه المعركة الأخيرة كانت هي المعركة الوحيدة التي خسرتها بنت الشاطئ. وقبل أن نتحدث عن هذه المعركة بشيء من التفصيل فلابد من أن نتحدث في لمحات عامة عن شخصية أحمد حسن الزيات، فقد تعلم الزيات في الأزهر، وكان زميلاً وصديقًا ملازمًا لطه حسين في تلك الفترة الأزهرية الأولى من حياتهما، وهناك قصيدة كتبها طه حسين في بدايات حياته يهنئ فيها الزيات بزواجه، فقد كان طه حسين يكتب الشعر في بدايات حياته الأدبية في أوائل هذا القرن، ومن هذا الشعر قصيدته في تهنئة الزيات بالزواج، ومن المفيد والممتع أن نقرأ بعض أبيات هذه القصيدة التي كتبها طه حسين سنة 1910، وكان في الحادية والعشرين من عمره، وهي تكشف لنا عن «البداية الشعرية» لطه حسين، حيث كان يكتب القصائد على الطريقة التقليدية، وقد توقف بعد هذه البداية عن كتابة الشعر، وانصرف إلى النقد والتاريخ والدراسات الإسلامية، وبقي جانب الفنان في طه حسين يعبر عن نفسه في رواياته وقصصه ومذكراته مثل «دعاء الكروان» و«المعذبون في الأرض» و«الأيام» بأجزائها الثلاثة وغير ذلك. وقصيدة طه حسين تثبت صداقته القوية لزميله في الدراسة أحمد حسن الزيات، ويقول طه حسين في مقدمة القصيدة: «دعيت إلى حفل أقامه صديقي الأديب الأستاذ الشيخ أحمد حسن الزيات لعقد قرانه بكريمة المفضال سيد أفندي النجار. فلما أجبت الدعوة راقني ما كان في الحفل من جمال وظرف. ولا سيما ذلك النوع من الغناء القديم الذي طالما اشتقت إلى سماعه:

أما قصيدة طه حسين نفسها فيقول فيها:

يــــا خــلــيــلــي ســلامــي

حــبــذا يــوم الــقــران

حــبــذا الــيــلــة أمس

راق لــي فــيــهــا زمــانــي

لــيــلــة قــد نــلت فــيــهــا

مــن حــظــوظــي مــا شــفــانــي

لــم أزل أقصــف حــتــى

خــلت أنــي فــي الــجــنــان

بــيــنــمــا نــحــن عــلــى ذ

لِــكَ زُفَّ الــقــمــران

آه يــا «زيــات» مــا أجـ

ـمــل ســاعــات الأمــانــي

أنــا لــولا ســوء حــظــي

لــم أكــن إلا ابــن هــانــي

يــا شــقــيــق الــنــفس ضــاق الشْـ

ـشِــعــر عــن نــظــم الــتــهــانــي

لا تــلــمــنــي إن دعــوت الشْـ

ـشِــعْــرَ والشــعــرُ عصــانــي

والقصيدة منشورة بنصها الكامل في كتاب طريف وحافل بالمعلومات المجهولة، حتى للأدباء المتخصصين، عن طه حسين، وهذا الكتاب هو «طه حسين الشاعر والكاتب» للأستاذ محمد سيد كيلاني، وأهمية هذا الكتاب أنه يكشف عن حياة طه حسين الأدبية في مرحلتها الأولى، قبل أن يحصل طه حسين على الدكتوراه، وقبل أن يسافر إلى فرنسا وما تلا ذلك من ظهور طه حسين وشهرته وإنتاجه الأدبي المعروف والمتنوع.

وقصيدة طه حسين عن «الزيات» فيها تقليد للشعر العربي القديم الذي كان الشاعر يبدأ فيه قصيدته بمخاطبة «صاحبين» أو «خليلين» له، وفيها استخدام لألفاظ لم تعد شائعة في الاستخدام اللغوي العربي الحديث مثل «القصف» بمعنى «اللهو»، وفيها يحلم طه حسين بأن يكون شاعرًا مثل «ابن هاني»، و«ابن هاني» هو «أبو نواس»، أي أن «أبا نواس» كان مثلاً شعريًا أعلى عند طه حسين في بداية حياته، ولعله كان مثلاً أعلى في رغبة طه حسين في أن يستمتع بالحياة ويلهو بها ويملأ نفسه من ملذاتها المختلفة كما كان «أبو نواس» يفعل، أو لعل طه حسين كان في هذا العمر المبكر يرى أن «أبا نواس» هو المثل الأعلى في جمال الفن الشعري كما كان يتصوره في ذلك الوقت، والأرجح بعد ذلك هو أن «ابن هاني» لم يرد في قصيدة طه حسين البسيطة الساذجة إلا لأن القافية النونية فرضتها عليه!!

المهم هنا هو أن الصداقة كانت قوية بين الزيات وطه حسين في تلك المرحلة الأزهرية من حياتهما، وقد تشابه الاثنان بعد ذلك في أنهما ثارا على ثقافتهما الأزهرية، وتعلما اللغة الفرنسية، وسافرا إلى باريس، ونال منها طه حسين درجة الدكتوراه، أما الزيات فاكتفى بالدراسة الحرة، ولعله نال شهادة جامعية تشبه شهادة «الليسانس» ولم يحرص على نيل شهادات أكبر، واكتفى بأن يتقن الفرنسية ويرتوي من ينابيع الثقافة

في باريس دون أن يكون حريصا على أن يعود إلى مصر وفي يده شهادة رسمية، وهو نفس ما فعله توفيق الحكيم عندما سافر في العشرينيات إلى باريس، واهتم بالثقافة، ولم يهتم بالشهادات الرسمية.

وقد مرت بالزيات مراحل متعددة في حياته العملية، فعمل مدرسًا في المدارس الأهلية في مصر، وعمل أستاذًا للأدب في «المعهد العالي للمعلمين» في بغداد، ثم عاد إلى القاهرة وأصدر مجلة «الرسالة» الأدبية 1933، واستقر الزيات في هذا العمل حتى توقفت «الرسالة» عن الصدور في أول سنة 1953، أي أن الزيات استمر عشرين سنة متواصلة ولا عمل له إلا إصدار مجلته الأدبية الأسبوعية، وقد خلقت هذه المجلة العظيمة نهضة أدبية كبرى في الثقافة العربية المعاصرة، ومجلداتها الأربعون، والتي أعادت الدكتورة سعاد الصباح نشرها على نفقتها الخاصة منذ سنوات ـ تعتبر من أعظم الموسوعات الثقافية والفكرية والأدبية في تاريخ العرب المعاصر، وقد استهلكت هذه المجلة كثيرًا من وقت الزيات وجهده، فكان إنتاجه أقل من إنتاج أبناء جيله من كبار الأدباء مثل العقاد وأحمد أمين وطه حسين وزكي مبارك والمازني. وعندما نقول إن هذا الإنتاج كان أقل من غيره فإننا نعني بذلك أنه أقل من ناحية «الكم» وليس من ناحية القيمة والمستوى، فقد أصدر الزيات عددًا من الكتب المهمة منها كتابه عن «تاريخ الأدب العربي»، وكتابه «من وحي الرسالة» وهو في أربعة أجزاء، وقد جمع فيه مقالاته في «الرسالة» على مدى عشرين سنة، وله كتابان آخران هما «في أصول الأدب» و«دفاع عن البلاغة»، كما قدم بعض الترجمات المهمة منها «رفائيل» وهي رواية رومانسية جميلة كتبها الشاعر الفرنسي لامرتين، ورواية أخرى هي «آلام فرتر» ترجمها عن الفرنسية أيضًا وهي لأديب ألمانيا الأكبر «جوته».

وكان الزيات من أكبر دعاة الحرية والتجديد، ولكنه كان حريصًا في الوقت نفسه على الدعوة إلى احترام التراث العربي القديم، وكان من أشد المؤمنين بأن هذا التراث له قيمته الكبرى وأنه بحاجة إلى من ينفض الغبار عنه ويقدمه للناس في صورة عصرية سليمة، ولذلك كانت مجلة «الرسالة» تحت قيادة صاحبها الزيات تمثل هذا

الاتجاه خير تمثيل، فكانت مفتوحة الأبواب للثقافة الغربية الحديثة، وكانت في الوقت نفسه منبرًا للثقافة العربية التي وجدت على صفحات الرسالة أجيالاً متعددة من الباحثين اهتمت بتقديم هذه الثقافة في صورة عصرية رائعة.

على أن الزيات لم يكن مجرد أديب يهتم بقضايا الشعر والأدب وفنون الجمال المختلفة، بل كان مفكرًا سياسيًا واجتماعيًا من طراز رفيع، فهو من أوائل المفكرين المصريين الذين آمنوا بعروبة مصر ودعوا إليها بقوة وأصالة وإخلاص وفهم عميق، وقد تبنى دعوة العروبة في مصر في وقت مبكر، حيث كان هناك كثيرون من المفكرين يرون أن مصر لا علاقة لها بالعرب والعروبة، وأن شخصيتها الحقيقية أقرب إلى الشخصية الأوروبية منها إلى الشخصية العربية. وتفرعت عن هذه الدعوات الإقليمية التي تنفي عروبة مصر دعوات فرعية، مثل الدعوة إلى الكتابة بالعامية المصرية، واعتبار هذه العامية هي اللغة المصرية الخاصة بالمصريين والتي لا علاقة لها باللغة العربية، ودعوة أخرى خطيرة ترددت بقوة في هذا المناخ الإقليمي المعادي للعروبة، وهي الدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية، وكان ذلك صدًى لما حدث في تركيا تحت زعامة مصطفى كمال أتاتورك من استخدام الحروف اللاتينية في اللغة التركية بدلاً من الحروف العربية، وأمام هذه الهجمة الواسعة على عروبة مصر، وعلى اللغة العربية نفسها، وقف الزيات موقفًا حازمًا شجاعًا، وظل يدافع بقوة الحجة والبرهان عن عروبة مصر، وعن اللغة العربية والثقافة العربية حتى وفاته سنة 1968 وهو في الثالثة والثمانين.

من ناحية أخرى كان الزيات صاحب فكر اجتماعي واضح، فكان يدعو إلى العدالة الاجتماعية بقوة، وكان يهاجم الإقطاعيين والرأسماليين في مصر، ويطالبهم بأن تكون لهم رسالة تساعد على نهضة المجتمع، وتحرير المواطنين الفقراء ـ وهم الأغلبية الكبرى من أبناء مصر ـ من أوضاعهمّ السيئة. والزيات هو أول من حدد أهداف التقدم الاجتماعي في مصر بأنه محاربة «الفقر والجهل والمرض»، وقد أصبحت هذه العبارة شائعة على جميع الألسنة والأقلام، بعد أن قدمها الزيات في

هذه الصورة الواضحة المحددة، والزيات هو أول من دعا إلى إنشاء وزارة «للشئون الاجتماعية»، وقد تم الأخذ بفكرته، وأنشئت هذه الوزارة، لتصبح إحدى الوزارات الأساسية في مصر وفي معظم الدول العربية بعد ذلك، وصاحب فكرة هذه الوزارة والداعي الأول لها هو الزيات.

والزيات يكتب بأسلوب خاص به وحده، فكتاباته النثرية مليئة بالإيقاع، وهي أقرب ما تكون إلى ما يسميه البعض الآن باسم «قصيدة النثر»، ولكن هذا الأسلوب القائم على التركيز الشديد والمليء بالموسيقى، والذي يستخدم أحيانًا ألفاظًا عربية مهجورة، وغير شائعة على الأقلام والألسنة، لم يكن يخفي الجوانب الفكرية المتنوعة القوية في شخصية الزيات، فهو مفكر عصري يدعو إلى التجديد والحرية والعدالة، ويعبر عن ذلك كله بأسلوبه الفصيح الجميل الذي يتميز به تميزًا كاملاً عن غيره من أدباء جيله الكبار.

هذه صورة عامة للزيات، ولو أننا درسنا شخصية الزيات بتفصيل أكثر لعرفنا أن أفكاره وآراءه ودعواته الاجتماعية والسياسية، كانت كلها من أكبر المؤثرات على عقول ثوار يوليو «تموز» سنة 1952، وكانت نبعًا من الينابيع الأساسية في مشروعاتهم المختلفة.

هذا هو الزيات، وهذه هي أبعاد شخصيته المختلفة، وربما كان من الضروري أن نضيف هنا أن الزيات كان معروفًا بالعفة والنزاهة والأخلاق الرفيعة والابتعاد التام عن السعي إلى الحصول على مكاسب اجتماعية أو مادية عن طريق الاقتراب من الزعماء والأحزاب وأهل النفوذ والسلطان، ولذلك بقي الزيات يؤدي دوره عن طريق الكتابة وعن طريق إدارته لمجلته «الرسالة»، وعاش بعيدًا عن الصخب والزحام والأضواء، مؤثرًا العزلة والعمل المتواصل في هدوء وصبر ومثابرة.وهنا نصل إلى المعركة التي قامت بين بنت الشاطئ وبين الزيات، فقد كانت بنت الشاطئ هي البادئة بالهجوم على الزيات، دون أن تحسب حسابًا لمكانة الرجل ومواهبه، ودوره الرائد في الحياة الفكرية في مصر والعالم العربي، إذ كانت معظم المجلات الثقافية المصرية مجلات مصرية فقط،

بينما كانت مجلة الزيات مجلة للعرب جميعًا، تفتح صفحاتها لأقلامهم وقضاياهم المختلفة، وبالإضافة إلى ذلك كله فإن ما كتبته بنت الشاطئ ضد الزيات كان بعيدًا عن الصواب، خاليًا من الإنصاف.

كان ذلك في أوائل سنة 1946، وكان الزيات قد أصدر قبل ذلك بشهور كتابه «دفاع عن البلاغة»، وهو كتاب فريد في المكتبة العربية الحديثة، وفيه يحاول الزيات محاولة طيبة لتعريف «البلاغة» وتحديد شروطها بالتوفيق بين الشروط العربية القديمة والشروط الغربية الحديثة، وقد صدر الكتاب في مرحلة لم يعد فيها أحد يستخدم كلمة «البلاغة» وأصبح هناك ميل عام سائد وشائع لاستخدام كلمة «أدب» أو «فن» أو «أسلوب»، والحقيقة أن كتاب الزيات كان في جوهره دراسة لفن «الأسلوب»، وكيف يمكن لنا أن نقول: هذا أسلوب جميل تنطبق عليه عناصر البلاغة الصحيحة، وذلك أسلوب غير جميل لا تنطبق عليه عناصر الكلام البليغ. وذلك نوع من الدراسة لم يعد أحد يقترب منه. ولكن الزيات اقترب منه واقتحم موضوعه، وكتب عنه بذكاء وذوق وحساسية، واستخدم أسلوبه المتميز الذي يعنى بالإيقاع أو الموسيقى في النثر. وكان الكتاب مع ذلك كله موجزًا واضحًا، يحرث في أرض خصبة لم يعد أحد يحرث فيها أو يعنى بها. ولعل كتاب الزيات كان آخر صيحة وآخر جهد في دراسة «البلاغة» أو «فن الأسلوب» في مكتبة النقد العربي المعاصر.

في ذلك الوقت، أي سنة 1946، وما قبلها وما بعدها بسنوات كان الشيخ أمين الخولي يقوم بتدريس «تفسير القرآن» في كلية الآداب جامعة القاهرة، أو جامعة فؤاد الأول كما كانت تسمى في ذلك الحين. وكان أمين الخولي، هو الرجل الذي أحبته بنت الشاطئ وتزوجته، وآمنت بعبقريته ونبوغه ومنهجه في الدراسات والتفكير إيمانًا لم يفارقها طيلة حياتها، وكان الشيخ أمين الخولي رجلاً ذكيًا وأستاذًا له تأثيره الواسع على تلاميذه، فلم يتوقف هذا الأستاذ عند إعطاء دروسه في مدرجات الجامعة بل أنشأ جماعة أدبية داخل كلية الآداب هي الجماعة التي عرفها الناس باسم «الأمناء» نسبة إلى أمين الخولي، وقد ظلت بنت الشاطئ سنوات طويلة لم توقع باسمها على ما تكتبه إلا بهذه الصورة:

«... بنت الشاطئ ــ من الأمناء»، وكانت تنشر مقالاتها في «الأهرام» وغيره بتلك الصورة، تأكيدًا لنسبتها الفكرية إلى زوجها وأستاذها «الشيخ أمين الخولي».

وكان «الأمناء» يلتفون حول شيخهم، خارج مواعيد الدراسة، وفي المساء في أحد مدرجات كلية الآداب مرة في الأسبوع على الأقل، وفي هذه الاجتماعات كان الشيخ الخولي يلقي محاضرات في «البلاغة» ويحاول أن يقدم منهجًا جديدًا لدراسة «البلاغة» على طريقته الخاصة، وكان الخولي يرى أن منهجه في دراسة البلاغة هو المنهج السليم، وأن أي منهج آخر سواه هو منهج يجانبه الصواب، وقد جمع آراءه حول «البلاغة» في كتاب له عنوانه «فن القول».

وعندما ظهر كتاب الزيات «دفاع عن البلاغة» كان هذا الكتاب يقدم وجهة نظر مختلفة عن وجهة نظر أمين الخولي، والاختلاف هنا لا يعني التناقض أو التعارض، بل إن الرأي الموضوعي المنصف لابد أن يقول إن الخولي والزيات معًا كانا يجتهدان في مجال يتسع لاجتهادات متعددة، فلم يكن من الضروري أن يحدث تصادم بين الاجتهادين. ولكن التصادم حدث بسبب واقعي. فكتاب الزيات لقي ترحيبًا من جانب الرأي العام الأدبي، وكتب عنه العقاد والمازني، وطالب رئيس المجمع اللغوي عبد العزيز فهمي باشا، الذي كان قبل رئاسته للمجمع قاضيًا ووزيرًا للعدل، بتدريس كتاب «دفاع عن البلاغة» في المدارس والجامعات. ومست هذه الدعوة الأخيرة وترًا عند الأمناء وشيخهم أمين الخولي وزوجته وتلميذته الأولى بنت الشاطئ. فكتابات الخولي في البلاغة ليست لها شعبية أدبية، وتأثيرها القوي محصور في الدراسات الجامعية وبين صفوف «الأمناء» وحدهم. فكيف يقتحم الزيات عالم الدراسات الطلابية في المدارس والجامعات وهو المجال الذي ينفرد به الشيخ الخولي والأمناء. وتصدت بنت الشاطئ لنقد كتاب الزيات بعنف، ولم تتوقف عند حدود نقدها للكتاب بل حاولت أن تطعن الزيات نفسه طعنات لا مكان لها من الحقيقة الموضوعية، ووصفته بأنه أديب من المدرسة القديمة، أي أنه بكلمات أخرى «شيخ» من شيوخ الرجعية الأدبية.

وأدرك الزيات الهدف من الحملة فكان رده ساخرًا وساحقًا وبالغ العنف على غير عادته في الكتابة العفيفة اللطيفة البعيدة عن التجريح والحدة.

وقد نشرت بنت الشاطئ مقالها ضد الزيات في مجلة «الكتاب» الثقافية الشهرية التي كانت تصدر عن دار المعارف وكان يرأس تحريرها الشاعر الأديب عادل الغضبان في عددها الصادر في يناير «كانون الثاني» سنة 1946. ونكتفي هنا بتقديم الجزء الأول من مقال بنت الشاطئ والذى ينطوي على مخالفة صريحة للحقائق حيث تقول: «اخترت هذا الكتاب «دفاع عن البلاغة» من بين الكتب التي ظهرت في الموسم الحاضر لسببين، أولهما أنه يعالج موضوعات تتصل عن قرب، وفي قوة بحياتنا الأدبية المعاصرة، وثانيهما أنه يعطي صورة من تفكير المدرسة القديمة وأسلوبها. وليس لي بمؤلف الكتاب الأستاذ أحمد حسن الزيات معرفة شخصية، لكني أعرفه في «الرسالة» وفي كثير من آثاره الأدبية، وفي حديث من لهم به معرفة واتصال. وقد وصف لي ثقة منهم، ما يتكلفه الأستاذ من المشقة والجهد في سبك عباراته، وتأليف جمله، وحدثني عن صبره العجيب على نحت الألفاظ، واختيارها مما لا يدور على ألسنة الناس. وليس يعيب الأستاذ أنه من صميم المدرسة القديمة وتلاميذها الخُلَّص، فبحسبه عندنا أنه من النفر القلائل الذين لهم مذهب بعينه، يعتنقونه ويخلصون في الدعوة إليه، وكتاب «دفاع عن البلاغة» هو أحدث مطبوعات «الرسالة» التي تحمل جميعًا طابع المدرسة القديمة، وهي مدرسة تكره حرية التعبير، وبساطة الأداء، وقرب المأخذ، وتشتد في طلب التركيب الضخم، والسبك الجيد، والصنعة المتقنة، والتعبير الفخم، وتفتن بالألفاظ الموروثة عن البداوة».

هذه هي مقدمة نقد بنت الشاطئ للزيات وكتابه «دفاع عن البلاغة»، وفي هذه المقدمة تخطئ بنت الشاطئ تمامًا في تصويرها للزيات ومجلته «الرسالة»، فالزيات هو مترجم «لامرتين» و«جيته» فكيف يكون كاتبًا يبحث عن البداوة ويقلد لغتها؟ أما مجلة «الرسالة» فقد كانت معرضًا حيًّا ونادرًا للأساليب الحديثة والدعوة إلى تجديد الثقافة العربية عن طريق الاتصال الصحيح بالأصول الثقافية الغربية، وعلى صفحات الرسالة

تمت ترجمة «إلياذة هوميروس» و«محاورات أفلاطون»، وكتاب «نيتشه» الشهير «هكذا تحدث زرادشت» وغير ذلك من الآثار الأدبية العالمية، وعلى صفحات «الرسالة» كان الحديث عن تجديد الأزهر، وعن قضايانا الاجتماعية الرئيسية وعلى رأسها قضية العدالة الاجتماعية، وعن قضايانا القومية الكبرى ومنها عروبة مصر، وقضية فلسطين. فكيف تقول بنت الشاطئ عن مدرسة الرسالة «إنها مدرسة تكره حرية التعبير وبساطة الأداء..» إلى آخر هذا الكلام الذي يدل على انعدام الموضوعية ونقص المعلومات الصحيحة والدقيقة؟

وعلى هذا الأسلوب جرى نقد بنت الشاطئ للزيات، وعلى غير عادته في الابتعاد عن المعارك الأدبية والشخصية رد الزيات على بنت الشاطئ ردًّا ساحقًا، وأشار إلى الأسباب الحقيقية التي دفعتها إلى كتابة نقدها غير المنصف لكتابه، وخلاصة هذه الأسباب أن بعض كبار رجال الفكر والثقافة رشح كتاب الزيات لتدريسه في المدارس والجامعات مما أغضب الشيخ أمين الخولي وتلميذته وزوجته بنت الشاطئ.

ورد الزيات على بنت الشاطئ هو رد طريف ومثير، وهو لون من ألوان الكتابة الأدبية والنقدية لم يعد مألوفًا ولا معروفًا في حياتنا الأدبية الآن، ولا أذكر شيئًا يشبه هذا الرد إلا في بعض كتابات نزار قباني النثرية عندما كان يغضب ويثور، فيتدفق فيما يكتب بصور عجيبة وعبارات مثل حد السيف الذي يجرح ويذبح، وعلى هذه الصورة الحادة جاء رد الزيات على بنت الشاطئ، ولذلك أرى من المفيد أن نقرأ هنا رده بالكامل، ففي ذلك ما يقدم لنا نموذجًا مما كانت عليه معارك الأدب في الجيل الماضي من عنف وحدة وحيوية عالية، ولو أن هذه المعركة الأدبية اشتعلت اليوم، وكتب الزيات رده بهذا الأسلوب الحاد، لما احتمل أحد ما جاء فيه، ولانتهى الزيات بالوقوف أمام القضاء متهمًا بالسب والقذف، ولكن شيئًا من هذا كله لم يحدث سنة 1946 لأن أصحاب الأقلام كانوا ينالون حقوقهم بأقلامهم وقدرتهم على الدفاع عن أنفسهم وآرائهم، ولم يكونوا بحاجة إلى قضاة ومحامين.

يقول الزيات في رده على بنت الشاطئ موجهًا حديثه إلى الأستاذ عادل الغضبان رئيس تحرير مجلة «الكتاب» التي دارت على صفحاتها هذه المعركة: «زميلي الأستاذ رئيس تحرير الكتاب قرأت في العدد الأخير ذلك الكلام الطويل الذي ينتهي بإمضاء من تسمي نفسها: «بنت الشاطئ ـ من الأمناء»، وقد ترددت وأطلت التردد قبل أن أعقب على هذا الكلام بهذه الكلمة، لأن الغرض من الكتابة عن كتابي «دفاع عن البلاغة» إنما هو تصغير الكاتب وتحقير الكتابة، والرد الطبيعي على هذا الغرض هو تصغير الناقد وتحقير النقد، ولكن الكاتب الذي ارتضى لنفسه هذا الأسلوب هو سيدة كما يظهر من الإمضاء، وللنساء مهما يكن على الرجال حق الرفق والإغضاء، وأنا بطبعي أبغض الجدال، وهو أبغض ما يكون إلي حين يتصل بي اتصالاً مباشرًا أو غير مباشر».

«على أنني بإزاء سيدة تمردت على طبعها وحقيقتها فلفت على رأسها الصغير عمامة الشيخ، وضمت أناملها الخرعة على قلم غليظ خشن يقطر بالدعوى العريضة والنية المريضة والجدل العقيم، وعمدت إلى المقالات الثلاث الأولى من «دفاع عن البلاغة» فمزقتها ومزقتها، وسلت بعض الجمل من بين أخواتها سلاً، وحاولت أن تجعل لكل جملة معنى مستقلاً، لتستنتج منها ما حلا لها أن تستنتج، كما صنعت بالمقالة الثانية مثلاً، ومثل هذا لو صنع بأي كتاب مقدس لعاد باطلاً كله، ثم أخذت بعد ذلك تناقش في الألفاظ وتجاحش عن بعض المعاني، وتتكلم في القديم والجديد وتتبجح بالتحرير والتجديد وعلمها بما خاضت فيه من كل أولئك لا يزيد على علمي بالهيروغليفية أو بالنسبية!».

«ولا يعنيني مطلقًا أن أنبه إلى غلطاتها ومغالطاتها، فإن الكتاب في أيدي الناس، يقرأونه بالنظر السليم ويفهمونه بالعقل الخالص، إنما يعنيني أن أبين للذين أساءوا الظن بأدب السيدة أنها لم تكن إلا بوقًا نفخ فيه من نفخ لسبب يسأل عنه صاحب السعادة عبد العزيز فهمي باشا «رئيس المجمع اللغوي في ذلك الوقت» فقد نشرت له مجلة «الرسالة» رأيا في كتاب «دفاع عن البلاغة» جاء فيه قوله: «.. وخرجت من قراءة

هذا الكتاب الممتع بأن دراسته لا تصلح للمبتدئين ولا لأنصاف المتعلمين لأنه مقارنة قوية لبلاغة العربية ببلاغات اليونانية واللاتينية والفرنسية وغيرها، ودراسة هذه المقارنة إنما تصلح للمتخصصين في علوم العربية، ويسرني أن أسمع أن إدارتي جامعتينا (جامعة القاهرة وجامعة الإسكندرية ـ وهما الجامعتان الوحيدتان في مصر في ذلك الوقت أي سنة 1946 ـ قد قررتا تدريس هذا الكتاب لطلاب التخصص في اللغة العربية، فإنهم بالمقارنة بين ما قاله علماؤنا وبين ما قاله العلماء الأجانب قديمًا وحديثًا يستطيعون أن يحددوا مركز علمائنا السامي بين رجال البلاغة في كل بلد. وهذه المقارنة ولا ريب تفتق الأذهان وتوسع الآفاق، وهي خطوة لابد منها لشرقنا حتى يستطيع الناقص أن يتم، والتام أن يكمل، والكامل أن يكون على بينة من كماله..»، ولم يكن قاضي القضاة أطال الله عمره «والزيات يعني بقاضي القضاة عبد العزيز فهمي باشا، فقد كان قاضيًا ووزيرًا للعدل ومن أكبر أعلام القانون في عصره» يدري أن في مصر شيخًا من شيوخ الدين، يزعم لنفسه رياسة التجديد في البلاغة والأدب والأسلوب حتى في الزي، ويجمع من حوله طائفة من تلاميذه سماهم باسمه ووسمهم بوسمه، وجعل في يد كل واحد منهم سكينًا، ثم أغراهم بجلود الذين أوتوا نصيبًا من الذكر والكرامة. كبير الأمناء هذا عز عليه هو وأتباعه أن يحكم كبير القضاة لكتاب ليس لهم، ولكاتب ليس منهم، ونوه بالدفاع عن البلاغة العقاد والمازني، فوغرت الصدور وورمت الأنوف، وتصارع الأمناء قائلين: وأين نحن إذن؟ وهل يجوز لأحد غيرنا أن يدخل في شئون البلاغة، ثم سوَّل لهم كبيرهم أن يسقطوا حجة هؤلاء المتطفلين على اختصاصهم بتشويه الكتاب، فتعاوروا على الصفحات الأولى منه، فعبثوا بها هذا العبث ثم حملوه هذه السيدة، وهي زوج الشيخ، فحملته وتولت كبره».

«من السهل يا زميلي علَى أي طفل أن يمزق أي كتاب بأي سكين، ولكن التمزيق الصارم كالتشريح بالمبضع المرهف لا يستطيعه إلا الجهابذة الموهوبون. ولو كنت أعرف السيدة بنت الشاطئ لقلت لها: ليس من طبعك ولا في وسعك يا سيدتي النقد النزيه، وليس من طبعي ولا في وسعي الرد السفيه، فردي هذا القلم

الغليظ إلى صاحبه، واستردي قلمك الرقيق من سالبه، وثقي بأن الفرق بين الكلام في الشواطئ والحقول، وبين الكلام في ثمار القرائح والعقول، كالفرق بين تكسير الجرة وبين تحطيم الذرة».

«أما أنت يا زميلي الفاضل فإني أعتذر إليك وإلى قرائك من كلام كنت أرجو أن أكتب في (الكتاب) غيره. على أن الذين استساغوا سخافة ذلك النقد، يسهل عليهم أن يستسيغوا تفاهة هذا الرد. والسلام عليكم ورحمة الله».

هذا هو رد أحمد حسن الزيات على بنت الشاطئ في معركتها الأدبية الوحيدة التي خسرتها، لأنها ظلمت الزيات وتجنت عليه ولم تحفظ له مكانته واعتباره كرائد من رواد الأدب العربي المعاصر، وبالطبع لم تستطع بنت الشاطئ أن ترد على الزيات.

وانتهت هذه المعركة لغير صالح بنت الشاطئ. ومن الطريف أنني عرفت بعض الأدباء الذين أعجبهم رد الزيات فحفظوه عن ظهر قلب ومنهم الشاعر السعودي المعروف حسن عبد الله القرشي فهو يحفظ هذا الرد.

فهرس

أحـــدث إصـــدارات

رجاء النقاش

- ثلاث نساء من مصر.
- الموت في قميص النوم.
- هل تنتحر اللغة العربية؟



ثلاث نساء من مصر

مجموعة من المقالات الصحفية الرصينة المؤسسة على خلفية ثقافية رفيعة ووعي ثاقب، عن ثلاث نساء مصريات هن: تحية حليم وبنت الشاطئ وأمينة السعيد.

يكشف الكتاب عن جوانب مجهولة في حيواتهن وكفاحهن، وكذلك معاركهن الفكرية التي خُضْنها بجهد وعزم ودأب.

والقلم هو قلم الناقد الكبير الأستاذ رجاء النقاش؛ الذي أنجز مقالاته بأسلوب سلس وممتع وبجهد وصدق وثقافة مِلمَّة بأدق عناصر وخفايا الموضوعات المطروحة.

وأعدتها للنشر في كتاب لأول مرة، السيدة د. هانية عمر قرينة الراحل الكبير رجاء النقاش، بتفان وإخلاص.

ويسعد دار نهضة مصر أن تقدم هذا الكتاب للقارئ الكريم.

الناشر



www.nahdetmisr.com

